أبو محمد عبدالله بن محمد الأزدي الصحاري الطبيب
حياته , ومنهجه العلمي في المعرفة

إعداد
د. زيني بن طلال بن الحازمي
أستاذ مساعد ـ قسم العلوم الاجتماعية
جامعة الملك عبدالعزيز ـ جدة
المملكة العربية السعودية

السيرة الذاتية

مما يؤسف له أن المصادر التاريخية التي احتفظ أصحابها ضخمة في حجمها تتناول بالتفصيل حياة علماء أسهموا في تاريخ العلم , وهو أمر يحمد لهم ـ إلا أنهم , وهو مما

يستغرب له , تناسوا أبا محمد الصحاري وجهوده العلمية , ولم يكن نصيبه من كل هذا الكم الكبير في كتب التراث سوى أربعة أسطر ولا غير احتفظ بها ابن أبي أصيبة ,إذا لولاه لأنكر البعض شخصية الصحاري برمتها مقارنة بقيمة كتابه بحجة أنه عالم يخرج كتاباً ضخماً ومفصلياً في الكثير من القضايا العلمية لا يمكن أن تخلوا منه جريدة أي مؤلف من المؤلفات المتعلقة بالتراجم بدءاً من منتصف القرن (5هـ /11م) ولولا الشذرات المتفرقة في كتاب الصحاري عن محطات تتعلق بسيرته لوجدنا من يفترض أن الكتاب منحولا للصحاري, وهو في الحقيقة لابد أن يكون لأسماء يتوقع منها أن تخرج مثل هذا السفر العظيم .

يقول ابن أبي أصبيعة: ((وهو أبو محمد عبدالله بن محمد الأزدي ... ويعرف بابن الذهبي .. أحد المقنين بضاعة الطب ومطالعة كتب الفلاسفة , وكان كلفاً بضاعة الكيمياء , مجتهداً في طلبها , وتوفي ببلنسة (من ديار الأندلس) في جمادى الأخرة سنة ست وخمسين وأربعمائة . ولابن الذهبي من الكتب : مقالة في أن الماء لا يغذو)).

إن كل مايقدمه لنا النص السابق ان هناك شخصية علمية عاشت في أوائل القرن (5هـ / 11م) , اهتم صاحبها بالطب , مشغولاً بالكيمياء , مطالعاً للفلسفة , توفي في مدينة بلنسية الأندلسية في الشهر والعام المحددين دون أن يذكر على الأقل من أين جاء الصحاري لو كان من غير أهل الأندلس , أم هو من أهل الأندلس أصلاً ؟ إلا أن الصحاري قدم لنا في مواضع من كتابه إشارات تتعلق بجوانب من سيرته دون أن تمدنا بالخلفيات التي شكلت شخصية الصحاري العلمية . وم هذه الإشارات:

أولاً: أن مولده كان في مدينة صحار إحدى مدن سلطنة عمان حالياُ إذا انتشر عنه حديثه عن هذه المدينة في مادة ((ص.ح.ر)):

بلاد بها شُدَّت علي تمائمي وأول أرض مسَّ جلدي ترابها.

ثانياً: تنتقل الصحاري بين حواض العلم في العالم الإسلامي على وقته , وشافه فيها أعلام المسلمين في شتى العلوم والمعارف , وهذا كله نجده منشوراً في كتابه , فقد شافه البيروني في فارس , ولقي ابن سبنا في غزنه , وتتلمذ على يديه فترة من الزمن , وهو مايتضح في ثنائه العطر على استاذه , وأخذه بآرائه العلمية في القضايا التي تحتاج إلى ترجيح بين أراء العلماء .

كما دخل الصحاري بلاد العراق في أول طلبه للعلم , فنزل البصرة فترة من الزمن ليست بالقصيرة تلقى خلالها دروس العربية على علمائها , باعتبارها أحد قطبي مدارس اللغة مع الكوفة في ذلك الوقت . وكذلك وجود الأزديون فيها بكثرة. كما زار بغداد , حاضرة العلم الأولى بأسره في ذلك الوقت . ورحل الصحاري أيضاً إلى بيت المقدس قبل ان ينتقل إلى مصر ومنها إلى المغرب , أخيراً استقرار , في مدينة بلنسية الأندلسية حتى وفاته بها سنة 466هـ .

مؤلفاته:

حقيقة أن الفقر المدفع المتعلق بتفاصيل سيرة حياة الصحاري يسيري أيضاً على إنتاجه العلمي . فلا نعرفله إلا كتاب الذي بين أيدينا , وهو كتاب ((الماء)) , ولا نعلم حقيقة ما

إذا كان للصحاري كتب أخرى لم يذكرها لعدم صلتها بموضوع الكتاب , أم أنه فعلاً لم يصنف إلا هذا الكتاب فقط.

الاستعداد العلمي

كانت الإحاطة بالمفاهيم الشائعة في المجتمع مصدراً أو مادة علمية للنقد ، وهو ما أشار إليه الصحاري فيما يتعلق بالمسلّمات العلمية [1].

وأمام ذلك ، أدرك الصحاري بأنه لزاماً عليه الإلمام الجيد بكل ما يعين على فهم النص العلمي فهماً جيداً يستطيع معه تمييز مواضع الخلل وإصلاحها ، وهذا ما توفر فعلاً في شخصية الصحاري في أخذه بطرف من كل علم مع التخصص في علم معين . إلمام الصحاري بالكيمياء والفيزياء في تناوله للقضايا الطبية ، ونقد الآراء المخالفة وهذه الصورة لها علاقة بالمظهر الأول ، وهو الموسوعية والمقصود هنا هو توظيف المعلومات المكتسبة من العلوم الأخرى في مناقشة الآراء الخاصة بعلم من العلوم [2].

لقد كان التكوين الذاتي للصحاري قمين بأن يخرج عالماً مدركاً لقيمة العلم ، يتمتع بدرجة رفيعة من الحرية في الرأي والاعتداد به ، جعله يصرح بجرأة واثقة بأنه قرأ في كتب الأطباء المتقدمين ومقالاتهم ما لا يعرف له وجها [3]

معالم المنْهَج العِلميّ للصحاري

إن الأهمية التي تشكلها دراسة موضوع (المنهج العلمي) في تاريخ التفكير العلمي عند علماء المسلمين كونه مدخلاً مهما للإطلالة من خلاله على النشاط النقدي عند علماء المسلمين؟.

كما إن موضوع المنهج العلمي والتراث يكتسب أهمية خاصة؛ لأنه كان ومازال قضية العلم الأساسية وهي حجر الزاوية للمعارف أجمع، ولصلته بالفكر الإسلامي في تعاطيه مع العلم [4] . فهو يؤكد على حقيقة دينية وعلمية في الوقت نفسه تؤكد بالضرورة الإيمان بالله، وذلك من خلال مجموعة من المسلمات [5] التي ينطلق منها العالِم ويتم

([1]) الصحاري : كتاب الماء ، (1/ 359) .

([2]) انظر عن أثر إلمام الصحاري بالكيمياء والفيزياء في تناوله للقضايا الطبية ، ونقد الآراء المخالفة ، كتاب الماء ، (1/33-34، 36-38، 118، 165) ، (2/ 186):وكذلك، كوهين العطار:منهاج الدكان ، ص 274، 275 .

([3]) الصحاري : كتاب الماء ، (2/ 470).

([4]) يحيى أبو الحير : الأبعاد المفاهيمية للمنهجية العلمية في التراث (مقال) ، (ص171) .

([5]) من هذه المسلمات : أن العالم –سواء المادي أو الاجتماعي- معقول ومنظم ، ويسوده التواتر والإطراد ، ويخضع لمبادئ الحتمية والعلِّية ، وأن هناك مجموعة من القوانين التي تحكم الظواهر المشاهدة أو المدروسة،

الوصول إليها من خلال عدة خطوات [6] تشكل في مجموعها (المنهج العلمي) . وهذا الأمر أفرز ثلاثة أمور تتعلق بالعلوم التجريبية، على درجة عالية من الأهمية ، وهي :

أولا : أن المنهج العلمي أصبح أنموذج تواصل بين علماء الإسلام ، ومعول هدم لحواجز الاتصال المعرفي واللغوي وبسطت أبعاد الزمان والمكان . ومنبع ذلك أن المنهج العلمي تزامن مع المسار التصاعدي للحضارة الإسلامية نحو الرقي [7] .

ثانيا : أنه نجح في تغيير المنظور الأروسطي الميتافيزيقي المبني على المنهج العقلي الاستنباطي والقياس الصوري إلى منظور منهجي جديد يحوي في طياته عناصر مبنية على المنهج التجريبي الاستقرائي تنظيراً وتطبيقاً ، على ما سنرى في السطور القادمة .

ثالثا : أنه أتاح الفرصة لحل معضلات وقف أمامها علماء المناهج في البيئات العلمية الناشئة ، أو حتى المعاصرة ، موقف المتفرج . وهي تتعلق بفهم موضع (مبدأ العلِّية) [8] في تفسير العلاقة بين الظواهر الكونية أو حتى الاجتماعية ، حيث تنبه علماء المسلمين إلى أن العلِّية ليست سوى شكل من أشكال الضرورة في العلاقة بين الظواهر ، وأن الهدف من البحث العلمي هو الوصول إلى القوانين وليس مجرد الوصول إلى العلة [9] . وهي تشكل مع مبدأ الاطراد المبادئ التي يقوم عليها القياس الأصولي ، وكذلك المنهج الاستقرائي، على نحو ما سيمر معنا فيما بعد .

إذاً أهمية المنهج في الفكر الإسلامي ترجع إلى كونه وسيلة التثبت والتحقق في طلب العلم، ولا يعد الإنسان عالماً مالم يسلك منهجاً علمياً سليماً في سيره العلمي، ولا يكفي ((أن يكون لدى الإنسان عقل سليم، بل لابد أن يعرف كيف يستخدمه استخداماً سليماً.

وأنه يمكن للعقل البشري الوصول إلى هذه القوانين . وللتوسع انظر : محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ، (ص39) .

([6]) سيأتي الحديث عنها بعد قليل .

([7]) يوسف السويدي: الإسلام والعلم التجريبي ، (ص112-113) .

([8]) مبدأ العلية : مبدأ التلازم بين العلة والمعلول. وصدق مبدأ العلية يفترض ثبات الخصائص النوعية للأشياء. والإيجاد أو التحقيق أشهر معنى للعلية. مصطفى لبيب : نصوص واصطلاحات فلسفية عربية ، (ص210-211).

([9]) نبيل السمالوطي ، إشكاليات المنهج العلمي (مقال) ، (ص30) .

ونظرا لاهتمام الإسلام البالغ بمنهج توثيق الأخبار ، وعنايته بمنهج القياس في تفريع الأحكام ، ومنهج التجريبي والمشاهدة في علوم الكون والحياة ، فإن مسألة المناهج عدة من الدين ، وتقفز إلى الأذهان العبارة الشهيرة لعبدالله بن المبارك : ((الإسناد من الدين ، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء)) [10] .

وإذا كان مقصود ابن المبارك الإسناد في الحديث ، فإن ذلك يسري على كل العلوم في الإسلام وكأنها تعبر عن قاعدة مهمة في المنهج العلمي ، وهي التثبت الصادق في البحث عن الحقيقة .

وأفضى تتبع مصطلح (المنهج) في مؤلفات علماء المسلمين في العلوم التجريبية ، على وجه الخصوص ، إلى أن أقدم ذكر لهذا المصطلح كان عند ابن الهيثم عندما قال : « ولا عرفت للحق منهجاً ولا إلى الرأي اليقين مسلكاً جدداً » [11] . وهو ما يتسق مع تعريف عبدالرحمن بيومي للمنهج بقوله : « هو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة ، تهيمن على سير العقل ، وتحدد عملياته الفكرية حتى يصل إلى نتيجة معلومة » [12] .

على أن علماء المسلمين قد عبروا عن المنهج أيضا بالأصول والقواعد . وعليه فقد وصفت بعض الأصول الخاصة بالبحث في الحديث والفقه والتفسير وعلم الكلام ، وهو استخدام صحيح . إذ أن المنهج في جوهره عبارة عن أسس أو قواعد أو ضوابط أو أصول تحكم عنصري العمل العلمي : الباحث، والموضوع، والأصول من ((حيث أنها مبني وأساس لفروعها سميت قواعد ... ومن حيث أنها مسالك واضحة لها سميت مناهج)) [13] . بل يرى البعض [14] بأن كلمة (المنهج) قد أدت المعنى المراد منها وزيادة ، وأن التمسك بالمصطلحات القديمة يعد ضربا من التنطع . وهذا الأمر لا يستقيم على الأقل من الناحية التفصيلية للمناهج المتبعة في تناول العلوم المختلفة ، نظرا لطبيعة تلك العلوم ، إذ يترتب على بعضها حكماً قاطعاً مبنياً على ذلك المنهج ، فلابد إذاً من التمييز

([10]) صحيح مسلم بشرح النووي ، (68/1) .
([11]) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، (ص552) .
([12]) مناهج البحث العلمي ، (ص5) .
([13]) المعجم الفلسفي ، (98/1) .
([14]) علي الظاهر : منهج البحث الأدبي ، (ص14) .

من حيث المسميات بين هذا المنهج أو ذاك عند الاستعانة بها ، على أن مصطلح (المنهج) بمعناه الاصطلاحي لم يعرف خارج بيئة الإسلام إلا في القرن (السابع عشر الميلادي) عندما صاغ روجر بيكون قواعد المنهج التجريبي في كتابه " الأورغانون الجديد Novam organum " عام 1620م ، ومصطلح (المنهج) المقصود هنا هو : (المنهج التأملي) الذي يسير فيه العقل سيرا مقصودا وفق خطوات معينة وقواعد معلومة ومحددة سلفا ، وليس (المنهج التلقائي) الذي يسير فيه العقل سيرا فطريا بلا قواعد مسبقة يتكئ عليها . فهو وإن كان موصلا للحقيقة إلا أنه ليس المقصود بالدراسة عند علماء المناهج .

أما مدلول كلمة (البحث) الاصطلاحي من خلال معناها اللغوي، فهو : طلب الحقيقة وتقصيها ومحاولة الوصول إليها. ونقرأ في رسالة أبي حيان التوحيدي في العلوم نصوصاً أربعة، ترد فيها كلمة اشتقاقية من مادة (بحث). ففي موضع ترد بمعنى (المحاورة والمفاتشة) [15] ، وفي موضع آخر بمعنى (الباحث عن الحكمة) [16] ، وفي موضع ثالث بمعنى (القدرة على الوصول إلى الحقيقة العلمية) [17] ، ورابع بمعنى (الباحث المستنير بعقله للوصول إلى مبتغاه) [18] . وعلى ذلك فإن مصطلح (البحث) أخص من مصطلح (المنهج) بمعنى أن الأول خادم للثاني ، ولا يمكن ممارسة الثاني إلا عن طريق الأول . ولهذا فإن الجمع بينهما يصبح أمرا حتميا لكل عمل علمي رصين ، وهو : (منهج البحث العلمي) أو (المنهج في البحث العلمي عن كذا) ، فإن الإنسان لا يستطيع الصعود إلى أعلى النخلة وقطف ثمرها (هدف) إلا بواسطة وسيلة تعينه على ذلك (الطريقة) ، فالبحث عن الهدف وبلوغه لا يكون إلا عن طريق منهج واضح وسليم .

ولم يجد العلماء في الحضارة الإسلامية صعوبة تذكر في بناء المنهج العلمي وتطويره وتطبيقه والالتزام به في بحوثهم وأعمالهم العلمية ، لأن

([15]) أبو حيان التوحيدي : رسالة في العلوم ، (ص18) .
([16]) المصدر السابق ، (ص18) .
([17]) المصدر السابق ، (ص22) .
([18]) المصدر السابق ، (ص22) .

مبادئ قواعد وأخلاقيات هذا المنهج في مجموعها جزء من فكرهم الإسلامي وثقافتهم الإسلامية .

فعلى الرغم من معرفة علماء المسلمين لطبيعة البحث العلمي في العلوم التجريبية ولعناصره وأركانه وشروطه وخطواته، وإدراكهم لضرورة اتباع منهج علمي تجريبي –على ما سنرى- في بحوث العلوم الأساسية ذات الطبيعة التجريبية؛ فإنهم لم يهتموا بتعريف وتحديد مفهوم البحث العلمي، ومفهوم المنهج التجريبي بطريقة منظمة ومستقلة ، على النحو الذي نجده في كتابات البحث العلمي ومناهجه المعاصرة .

لقد أراد المسلمون من خلال منهجهم العلمي تجاوز ذلك المنهج التأملي العقلي الذي برع فيه اليونان واكتملت فيه العبقرية الإغريقية . والكشف عن العلاقات العلية (السببية) التي تقوم بين الظواهر بعضها لبعض ، بهدف وضع القوانين التي تفسرها .

وهذا المنهج يمنع من التسليم بالخرافات والأوهام والقوى الخفية الغيبية ، لأن مرد جميعها إلى الاعتقاد بوجود علاقات وهمية أو عرضية بين الظواهر بعضها ببعض ، وكثيرا ما تكون بعض هذه الظواهر أو كلها من الغيبيات التي لا يمكن التثبت من حقيقتها إلا بالرجوع إلى الواقع المحسوس ، وهو في العلم التجريبي مقياس الصواب والخطأ ، ومعيار الحق والباطل. وهذا ما ذهب إليه القزويني عندما قال : ((وليس المراد من النظر تقليب الحدقة نحوها (يقصد السماء) فإن البهائم تشارك الإنسان فيه ... والمراد من النظر التفكر في المعقولات والنظر في المحسوسات والبحث عن حكمتها وتصاريفها يظهر له حقائقها.

ولما كان الشك وثيق الارتباط بالمنهج العلمي عند علماء المسلمين، إذ به يتوقف العالم عن الحكم ويتريث حتى يتضح له الدليل والبرهان، وبالتالي فهو وثيق الصلة بالعملية النقدية، وإنما يبدأ النقد بالشك في المنقود والشك عند علماء المسلمين ضد اليقين [19] . ويعتبر ابن الهيثم الشك أحد قوى العقل العرضية الثلاثة، وهي : الظن، والتوهم، والشك [20] . وعنده أن الظن : هو تحاذي الرأيين، أما التوهم، فهو : موافقة الظن .

([19]) الصحاري : كتاب الماء، (354/2) .

([20]) ابن الهيثم : ثمرة الحكمة، (ص286) .

فإذا كان غرض ابن الهيثم من وراء شكوكه على بطليموس حل هذه الشكوك فقط، وبمعنى أدق إعادة بناء النص العلمي . فهو كذلك عند أبي محمد الصحاري (ت465هـ) وكان النقد يمثل مصدراً معرفياً بالنسبة لكتابه "الماء" فهو لم يكن يقبل أن يضمنه شيئاً لا يطمئن إليه، ولو كان صادراً من الرؤساء إلا أن يكون قد صح عنده . فعندما كان يتحدث عن المعنى الفسيولوجي للروح، كان الصحاري يذهب في رأيه إلا أنها متولدة عن بخار الأفلاط ولطبقها، أما ما ذهب إليه جالينوس بأنها متولدة من الهواء المستنشق فقد وصفه الصحاري بأنه رأي باطل [21] ، قندرعا بمبررات علمية تدخل في باب معايير النقد، التي سوف يأتي الحديث عنها .

وتمثل عملية التصحيح والتنقيح وإعادة بناء النص عند الصحاري عملاً علمياً مهماً وخطيراً في الوقت نفسه، إذا ما علقت بها براثن التخلف وعدم مواكبة الصعود الحضاري للعلوم [22] .

والصحاري على الرغم من نقده لشيخه ابن سينا في عدة مواضع، إلا أنه لم يكن يلجأ للنقد أو الاستدراك عليه لمجرد أن يشعر باستدراكه على شيخه أنه نال شيئاً عظيماً، وإنما كان هدفه –كيفية أترابه من العلماء الحقيقيين- تحقيق الأهداف العلمية المرجوة من وراء العمل العلمي، ولذلك نراه يصرف النظر عن الخوض في بعض الموضوعات كموضوع الحزن وعلله بحجة أن شيخه ابن سينا له مقالة وصفها بالعظيمة في هذا الموضوع، وأن « ما ذكره هناك يغني عن كل إعادة، ويُعَنِّي من رام الزيادة عليه » [23] .

أولاً : خطوات البحث التجريبي في منهج الصحاري العلمي

لقد اختلف علماء المسلمين التجريبيين في ترتيب هذه المراحل تبعا لطبيعة كل علم تناولوه . ولكن هناك عناصر للبحث التجريبي اتفق عليها الجميع ، وهي :

الخطوة الأولى : الملاحظة observation [24] :

([21]) الصحاري : كتاب الماء ، (183/2) .
([22]) المصدر السابق، (31/1) .
([23]) المصدر السابق، (330/1) .
([24]) الملاحظة: تطلق الملاحظة على ما يحكم فيه الحس، سواء كان ذلك الحس من الحواس الظاهرة أو الباطنة.

وهي الرصد والتتبع للظاهرة المراد دراستها على ما هي عليه في الواقع سواء في المختبر أو في الطبيعة من خلال الاستقراء [25] . ويقول ابن الهيثم : « ... ونبتدئ في البحث باستقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات ، وتمييز خواص الجزئيات . ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس » [26] . أي أن التجارب إنما تمليها طبيعة المشكلة التي يتعلق بها البحث ، ثم تكون التجربة بعد ذلك. ولا يكتفي هذا النص بالإشارة إلى ضرورة البدء بالملاحظات الحسية الجزئية، وإنما بوضع شروط ضرورية لتسجيل الملاحظات . منها :

الشرط الأول : وجود الوقائع الثابتة المضطردة في حدوثها .

الشرط الثاني: تسجيل الوقائع الموضوعية مستقلة عن إحساسنا بها .

الشرط الثالث : الاهتمام بصياغة المقدمات ، وسلامة الاستدلال من المقدمات إلى النتائج.

الملاحظة العلمية هنا أنها رؤية وفحص ظاهرة موضوع الدراسة مع الاستعانة بأساليب البحث الأخرى التي تتلاءم مع طبيعة هذه الظاهرة [27] . وهذا الأمر قد التزم الصحاري .

وظائف الملاحظة عند الصحاري، وهي :

1) الملاحظة من أجل التشخيص .

وهي الغالبة والأكثر استخداماً لدى الصحاري، وهي تمثل نموذج الملاحظة العلمية في منهجه التجريبي، والكتاب مليء بالنصوص الدالة على ذلك. ونراه في موضع من كتابه يقعد لهذا الأمر ، وعليه تقوم دراسة المرض وعلاجه، ويسمي

وهي إحدى صور المعرفة التجريبية تقوم على التوجه إلى الشيء في يقظة وانتباه. والملاحظة مقابلة للتجريب، إلا أن التقابل بينهما مختلف باختلاف العلماء. وملاحظة الرجل العادي مشاهدة عادية. أما ملاحظة العالم فهي علمية. وهي بدورها إما بسيطة أو مسلحة (بالمجهر والتلسكوب وخلافه) وقد تكون كيفية أو كمية. محمد عبدالله: معجم مصطلحات المنطق وفلسفة العلوم ، (ص278-280).

([25]) الاستقراء : تطلق عبارة الاستقراء على خطوات المنهج التجريبي .

([26]) كمال الدين الفارسي ، تنقيح المناظر ، (13/1) .

([27]) إحسان الحسن : الجذور التاريخية لمناهج العلوم الاجتماعية عند العرب (مقال) ، (ص82) .

الملاحظة بـ(التتبع)، ويقول في هذا الصدد : ((التتبع في الطب: أن تتبع علامات العلة وتراقبها))[28] .

وفي بعض الأحيان يقرن الصحاري بين المشاهدة واللمس في حسم بعض القضايا الطبية الخاصة بحياة الإنسان، ويؤكد على الجانب الإكلينيكي للنبض قائلاً : ((فالنبض علامة الحياة، وتوقفه علامة الموت إذا صاحبته برودة واصفرار واستمر يوماً كاملاً))[29] وهو يريد أن يصل بذلك إلى نتيجة مؤداها : ((... لا يصح دفن صاحب السكتة! إلا بعد انقضاء يوم من سكتة نبضه))[30] .

ووضع الصحاري - من خلال تشخيصه المعتمد على الملاحظة- ستة علامات فرّق بها بين الحصبة والجدري من حيث المنشأ، وحجم البثور، وبروزها على الجلد، وشدة الألم، وحجم ظهورها الخارجي على الجلد و العدد [31] وأنهما متشابهان في علامات الشفاء : ((وعلامات السالم منها (الحصبة) كعلامة السليم منه (الجدري)))[32].

وعلى مراقبة العلامات كان الصحاري يحدد علاجاً للأمراض قبل ظهور هذه العلامات وعلاجاً آخر بعد الظهور، وهنا يصبح التتبع البصري لبدن المريض يمثل أمراً حاسماً في علاجه، وهذا ما نجده على سبيل المثال- في حديثه عن علاج الحصبة : ((وعلاجها قبل الظهور الفصد أو الحجامة بحسب ما توجيه المشاهدة))[33] .

وتكرر اعتماده على المشاهدة الإكلينيكية في تشخيص الأمراض ومتابعتها سريرياً في حديثه عن مرض الجذام وعلامات ابتدائه مع شيء من التأمل [34] . وكذلك في تفقده لتطور مرض الجدري، حيث يقول : ((ومما يجب أن يتفقد من صاحبه النفس والصوت، فإنهما إن بقيا جيدين كان الأمر سليماً . إن تتابع النفس واشتد العطش، وتتابع الكرب، وبرد الظاهر، واخضر لون الجدري فقد قرب الهلاك))[35] .

([28]) كتاب الماء، (192/1) .
([29]) المصدر السابق، (393/3) .
([30]) المصدر السابق ، (393/3) .
([31])المصدر السابق، (336/1-337). وهي لم تخرج عما ذكره الرازي في تفريقه بين المرضين
([32]) المصدر السابق، (337/1) .
([33]) المصدر السابق ، (337/1) .
([34]) المصدر السابق، (254/1) .
([35]) المصدر السابق، (249/1) .

وفي علاج مرض " البَسِيْجَنْدَق " [36] يجعل الصحاري من الملاحظة السريرية هي الميزان الذي بموجبه يكون علاج مريضه. ويقول في هذا الصدد : ((والعمدة في علاج هذه العلة إصلاح الغذاء، وإنضاج المادة الغالبة ثم استفراغها بحسب ما توجبه المشاهدة))[37] .

وفي مواضع من كتابه نرى الصحاري يجمع بين الملاحظة الخارجية لجسم المريض والمضاعفات الداخلية المصاحبة لها، وذلك في الأمراض التي يلزم الوقوف عليها اتباع هذا النهج ، ولعل أبرز لمحة لفكر الصحاري في هذا الأمر نجدها في تفريقه بين مرض السرطان ومرض " سِيْقْروس" [38] من خلال (سبعة علامات داخلية وخارجية) تتوافر في المريض [39].

إن تأثر الصحاري بشيخه ابن سينا واضح جلي، ولذلك نراه يؤيده ويتأثر به في الأمور التي وافقه عليها فقط . أما التي لم يكن يوافقه فيها فلم يتورع الصحاري في ردها ونقدها كما سنرى فيما بعد فمن الأمور التي اتبعه فيها –وإن اشترك فيها أغلب الأطباء على نحو مختلف- اعتماده على المعاينة الدقيقة المصحوبة بالاستقراء في تشخيص الأمراض من خلال الخواص الفيزيائية للبول (التفسرة) [40] إلا أن الصحاري أراد –وهو صاحب الفكر الحر- أن تكون له طريقته الخاصة ، والتي شذ بها عن ابن سينا في طريقة تناوله لهذا الأمر من حيث التنفيذ . حيث يضع قاعدة تتمثل في أن للبول إذا استدل به على أحوال الأعضاء (ثلاثة أجناس) مصحوبة بـ(أربعة أعراض) . فالأجناس : الغلظ ، والرقة ، والتوسط ، والأعراض : الحمرة ، والصفرة ، والسواد ، والبياض ، لكنه اتفق معه في الشروط الواجب توفرها في عينة البول المراد فحصها [41].

ونحن نتحدث عن منهج الصحاري العلمي، واعتماده على الملاحظة في التشخيص ، فإننا نقف عند نص يظهر مدى ما وصلت إليه الذهنية العلمية عند أطباء المسلمين على أيام الصحاري ، والأصالة في إنتاج كثير منهم ، فعندما تحدث أبو

([36]) البسيجندق : علة تتلوى معها جميع الأعضاء . ابن هبة الله : المغني في الطب ، ص 176

([37]) كتاب الماء (127/1) .

([38]) سيقروس: ورم صلب سوداوي شبيه بالسرطان .

([39]) كتاب الماء، (2/ 253-254) .

([40]) التفسِرة: هي الاستدلال على علة المريض من خلال تحقيق النظر إلى الخواص الفيزيائية لبوله وتفسير أمره. القمري: التنوير في الاصطلاحات الطبية ، (ص68).

([41]) المصدر السابق ، (164/1-166) .

عبدالله الصحاري عن نوع من الخيوط الطبية ويسمى بـ(البَرِيم) ، وعن استخداماته الطبية استطرد قائلا : ((... ويستعمل أيضا في إخراج رطوبات يعانيها المعالج ؛ ليعرف العلة)) [42] . ولاشك أن الصحاري يتحدث هنا عن ما يعرف اليوم في تشخيص الأمراض بـ(المزرعة) أو المسحة الطبية للعاب ، لينظر فيها ويتأمل علـه يظفر بتفسير للمرض . فلم يكن ينقص الصحاري لكي يتوصل إلى نتائج باهرة سوى (المجهر) .

2- الملاحظة المعززة :

ويقصد بها: تلك المشاهدات العامة التي كان يستعين بها الصحاري لإثبات أمور كان قد توصل إليها وعرفها ، فيكون في إيراده لها تعزيزا لرأيه ، فعند حديثه عن السكتة المؤقتة التي تصيب الإنسان يذيل كلامه بجملة قال فيها : ((وقد يعرض أن يسكت الإنسان ولا يفرق بينه وبين الميت ، ولا يظهر منه تنفس ولا شيء ، ثم إنه يعيش ويسلم وقد رأيت منهم خلقا كثيرا كانت هذه حالهم)) [43].

كما أنه يستعين بالملاحظة في هذا الأمر عندما قدم وصفا لنبات (الأترون) ، ثم يتبع ذلك بقوله : ((ورأينا في بعض البلدان أن الرعاة يقدمونه للماشية والأنعام للتسمين واستدرار اللبن)) [44].

3- الملاحظة المقرونة بالتجربة :

ويقصد بها : الملاحظة التي تكون جزءا من المنهج التجريبي الذي يستخدمه الصحاري في تناوله لبعض القضايا الطبية ، وهي الأكثر استعانة من قبل الصحاري في كتابه.

وعلى الرغم من أننا سوف نعرض لها عند الحديث عن التجربة عند الصحاري ، إلا أن ذلك لا يمنع من إيراد نماذج منها ، استكمالا لموضوع الملاحظة عند الصحاري . فعندما تحدث الصحاري عن الفرق بين عود (الفاوانيا) وعود (الصليب الهندي) ، وهما من الأدوية المفردة النباتية ، من حيث الأثر العلاجي لكليهما ، يختتم حديثه بقوله

([42]) المصدر السابق ، (122/1) .
([43]) المصدر السابق ، (276/2) .
([44]) المصدر السابق ، (46/1) .

: ((فأما الذي وقفنا عليه من أمر عود الصليب الهندي ، عيانا وتجربة ، فليس فيه ذلك)) [45] .

وفي موضع حديثه عن مسببات السَّكتة [46]، يقول : ((واعلم أن المشاهدة والمعاينة وطول التجربة تؤيد أن السكتة قد تعرض عن فزَع أو بلغم أو دم غليظ)) [47] .

ويرى الصحاري أن فض النزاع بين الأطباء حول أول عضو يتكون في جسم الإنسان قبل غيره : القلب ، أم الدماغ ، أم العينان ، أو الكبد ، بأن السبل إلى معرفة ذلك لا يكون ((إلا عن طريق التجربة ، والقياس ، والمعاينة)) [48] .

وأخيرا يحدثنا الصحاري عن مرض جلدي يعرف بـ(العرق المديني) قائلا : ((وأكثر ما يعرف في الساقين وقد رأيته على اليدين وقطعه مؤلم)) [49] .

ونجمل القول فيما يتعلق بالملاحظة العلمية أن علماء المسلمين في العلوم التجريبية كانوا يتمتعون باطمئنان كامل إلا أن الخبرة الحسية بكل أنواعها تعد مصدراً وحيداً للحقائق العلمية ، إلا أن مباشرتها لا تكفي لقيام العلم إذا لم يصحبها معيار للتحقق من صدق فروض قد وضعوها من خلال استقراء ما شاهدوه للوصول إلى الحقائق العلمية فكانت التجربة هي المعيار.

الخطوة الثانية : الفرض hypothesis [50] :

([45]) المصدر السابق ، (410/2) .

([46]) السَّكْتة : أن يبطل حس الجسم وحركته من كثرة دم أو خلط غليظ بارد يملأ بطون الدماغ، فيمنع الروح النفسية من النفوذ، ويكون صاحبها كأنه نائم من غير نوم . ابن هندو: مفتاح الطب ، (ص152) .

([47]) المصدر السابق ، (277/2) .

([48]) المصدر السابق ، (216/3) .

([49]) المصدر السابق ، (29/3) .

([50]) الفرض: هو نقطة البداية اللازمة لكل استدلال تجريبي، وبغير هذا يعجز المرء عن أن يقوم بأي بحث. وتنشأ الحاجة إليه عندما تكون العلاقة بين الظواهر أو سبب هذه الطواهر غير واضحة. إلا أن تكوين الفرض على أساس من الوقائع المحددة ليس سوى الخطوة الأولى. ولما كان الفرض مجرد احتمال، لا أكثر، فإنه يتطلب التحقيق والبرهان. ويصبح الفرض –بعد التحقيق- نظرية علمية. فإذا جاء التحقيق سلبياً فإما أن يعاد النظر في الفرض أو يرفض. الموسوعة الفلسفية، (ص329-330). محمد عبدالله: معجم مصطلحات المنطق، (ص167-169).

وفي هذه الخطوة يتجاوز الباحث الوصف البسيط للظاهرة أو الظواهر إلى مرحلة التفسير، وبيان الروابط بين هذه الظواهر بأن يستوحي فرضاً أو فروضاً يفسر بها تلك الظواهر.

فالفرض هو: تفسير مؤقت للظاهرة موضوع البحث حتى تتحقق من صحته بوسائل التحقيق، فإذا أثبتت صحته أصبح قانوناً، وإذا لم تتحقق رفض . ومعنى هذا التفسير أن يتفق واقعه مع قانون [51] ، ولذلك فإن الفرض يعد أخصب أجزاء المنهج التجريبي [52] .

وفي التحقق من صحة الفروض من عدمها ، فقد استعان العلماء التجريبيين بقاعدة مهمة في هذا المضمار ، هما قاعدة " السَّبْر والتقسيم ".

السَّبر في **اللغة** : التجربة . وسبر الشيء سبرًا : حزره وخيره [53] . والسَّبر : استخراج كُنهِ الأمر . وسَبْر الجرح : قياسه بالمسبار لمعرفة عوره [54] .

وفي **الاصطلاح**: حصر الأوصاف التي توجد في الأصل والتي تصلح للتعليل[55]،واختبار كل واحد منها [56] ، وترديد العلة بينها في كونها صالحة للعلية أم لا ، ثم إبطال ما لا يصلح فيتعين الباقي للعلية [57] .

فعمل العالم المجتهد وفق هذه القاعدة ، جمع الفروض (الأوصاف) التي يظن أنها تصلح لأن تكون علة ، ثم يتحقق ويختبر كل واحد منها بوسائل التحقيق ، فيستبعد الفروض (الأوصاف) التي لا تصلح أن تكون علة ، فلا يبقى إلا ما يصلح أن يكون علة ، وهو المنهج الذي سماه فرنسيس بيكون بـ(منهج الحذف والاستبعاد) بناء على ما وصله من تراث

([51]) محمود زيدان: الاستقراء وا لمنهج العلمي، (ص47) .

([52]) بول موي: المنطق وفلسفة العلوم، (ص162). صلاح قنصوة: فلسفة العلم، (ص191-192) .

([53]) ابن منظور ، لسان العرب ، (340/4) .

([54]) الصحاري ، كتاب الماء ، (237/2) .

([55]) يقصد بالصلاح هنا ، الفروض التي تتفق يقينا مع الحقائق المسلم بها من قبل ، أو القوانين الثابتة ، والقوانين الثابتة هي القوانين التي لا مجال بعد –على أصح الآراء- للشك فيها ، مثل : أن سرعة الضوء أكبر من سرعة الصوت ، أن الأجسام تتمدد بالحرارة ... وهكذا ، والتي لا تصلح بالضد .

([56]) إن وسائل التحقيق هنا تختلف من علم لآخر ، تبعا لطبيعة العلم . وهي عادة لا تخرج عن وسيلتين ، هما : التجربة ، والاستدلال أو الاستنباط .

([57]) المناوي ، التوقيف على مهمات التعاريف ، (ص190) . الجرجاني: التعريفات ، (ص116) . عبداللطيف العيد: البحث العلمي ، (ص63) .

المسلمين فيما يتعلق بمنهجهم العلمي ، وهي ما يسمى في منهج الاستقراء الحديث بـ(المنهج السلبي) .

الخطوة الثالثة: التجربة

ويظل أبو محمد عبدالله الأزدي الصحاري (ت456هـ/ 1064م) أحد ألمع علماء المسلمين التجريبيين ، الذين أغفلت عن ذكرهم المصادر على الرغم من يقرأ كتابه يستغرب مثل هذا التجاهل، الذي لا يعرف سره إلا أن الصحاري – كما رأينا عند الحديث عن الملاحظة في منهجه العلمي- يصنف في زمرة جابر والرازي وابن الهيثم وابن النفيس والكشكري كعالم تجريبي من الدرجة الأولى، والفضل في ذلك يعود إلى أن الصحاري قد استمسك بالأسلوب العلمي الرصين بحذافيره ، حتى إن الباحث ليدهش من المادة العلمية التي دبج بها مصنفه الوحيد الذي وصل إلينا وهو " كتاب الماء ". وشكلت التجربة الملمح الثاني في منهجه العلمي مع الملاحظة. وباعتبار الصحاري طبيباً ممارساً فهو يجعل التجربة شرطاً أساسياً يجب أن يتوفر في الطب الحذ ق، إذ هي ملاذه الوحيد في معرفة العلاج الملائم لكل علة [58] . وفي مقدمة كتابه ذكر مصادره التي بناه عليها، وكانت التجربة أولها : « وقد عوّلت في هذا الكتاب على ما اختبرته بنفسي ». [59] إذ تعد التجربة في نظر الصحاري عاملاً حاسماً في التقرير بنفع الدواء من عدمه . ولذلك فهو حريص على أن يتبع الوصفات العلاجية في كل موضع بكلمة « مُجرَّب »، « وقد جربناه »، و « ومن الأدوية المجربة » كنوع من التأكيد على أنها مرت بمراحل الاستقراء العلمي حتى ثبتت صحتها. فعلى سبيل المثال عند حديثه عن استطبابات ورق شجر البشام ، ذكر بأنه « قد جُرب في الدمعة الدائمة ... وتنقية القروح » [60] ولذلك اشترط ألا تستخدم الأدوية إلا بمعرفة « الطبيب ذي الدستور » أي المتمكن من صنعة الطب، والمتخرج على أساتذتها الكبار [61] .

والذي دفع الصحاري إلى هذا الاحتراز في تناول الدواء، وضرورة خضوعه لنظر الطبيب الحذق ، أن تناول الناس للأدوية كيفما اتفق يؤدي إلى فقدان الدواء لفعاليته

([58]) الصحاري : كتاب الماء، (393/2) .

([59]) المصدر السابق، (31/1) .

([60]) المصدر السابق، (31/1) ، وانظر أيضاً نماذج من ذلك في الصفحات (120/1، 274، 277) ، (41/3، 59، 94، 96، 134، 238، 260، 409) وغيرها من المواضع وهي كثيرة في كتابه .

([61]) المصدر السابق، (19/1) .

العلاجية إذا ما استمر المريض في التركيز على نوع معين منه ، وهو ماقصده عندما قال : « وقد رأينا الأدوية المسهلة إذا أدمنها مدمن ، وألفها بدنه قل فعلها وتأثيرها » [62] ، وهو أمر يعود – من وجهة نظر الصحاري- إلى سلوك اجتماعي يختلف من بيئة إلى أخرى : « فقد رأينا في المشرق أن مقدار نصف درهم من السقمونيا يليّن الطبيعة، أما عند أهل الأندلس فإذا أراد أحدهم إسهال طبيعته أخذ من السقَمُّوْنيا [63] خمسة دراهم ، وقد لا يفعل هذا المقدار عند من تعود على ذلك الدواء » [64] .

ويظل الحكم على الأشياء عند الصحاري مرهون بما تسفر عنه التجربة، ولا سبيل غيره ولهذا لا يعتد بما يصدر عن الأسلاف مهما بلغت مكانتهم العلمية، وهو ينطلق من مبدأ علمي قائم على تمحيص وتدقيق كل ما يصل إليه – فهو- على سبيل المثال- عندما تحدث عن (الرَّاوندالصيني) ، ذكر رأي شيخه ابن سينا بأن عده من جملة الأدوية الباردة. فعقب على ذلك بقوله : « والذي دلتنا عليه التجربة أنه حار » [65] . فهنا تظهر التجربة كمقوم مهم وحاسم من مقومات النقد عند الصحاري .

إن أبرز ما يميز التجربة عند الصحاري أنها كانت هي المهيمنة على تشخيصه للأمراض، وبمعنى آخر أن الصحاري لم يكن ليرضى بأي سبب للعلل ما لم يكن قد خضع للتجربة. ولهذا كان الصحاري لا يقبل إلا الرأي العلمي القائم على أمور وجيهة يقبلها العلم والعقل، فهو « لا يؤمن على من أصابته الحصبة من النكسة إلى غاية سنة من بدء ظهورها » [66] . وهذا التحديد الدقيق لفترة عودة انتكاسة المريض لم يأتِ من فراغ، أو ضرباً من التخمين، وإنما التجربة المتكررة والمباشرة للمرضى . ومن خلال التجربة أيضاً أنكر الصحاري الحِمية القائمة على المفهوم الشاسع عند الناس، ويحذر منها قائلاً : « واعلم أن الحمية المعروفة بين الناس بأنها الانقطاع عن الطعام والشراب

([62]) المصدر السابق، (371/1) .

([63]) السقمُّوْنيا : لبن شجرة صغيرة تعلو على الأرض قدر المتر. وهي لفضة يونانية تعني المحمودة. ابن الجزار : الاعتماد في الأدوية المفردة ، ص 134-135 .

([64]) الصحاري : كتاب الماء ، (371/1) .

([65]) المصدر السابق، (186/2) .

([66]) المصدر السابق، (337/1) .

ليس من صنعة الطب في شيء. فليست الحمية في تجنب الأغذية ولو كانت رديئة » [67] .

ويحرص الصحاري على أن لا يذكر أي رأي علمي، وإن لم يتعلق بالطب، إلا ويكون مبنياً على أسس علمية ، خاصة فيما يتعلق بالعلوم التجريبية ؛ إذ إن عمادة فيها على التجربة ولا غير، فنراه يستعين بالتجربة الشخصية عند حديثه عن مياه الأنهار والآبار وأنواعها، والخواص الفيزيائية المميزة لكل نوع منها [68] .

وإذا كان الدواء متعلق بعلاج العلة فلابد أن يكون بمقدار معين يتناسب مع حال المريض، ويكون تحت إشراف الطبيب . أي أن الدواء – وإن كان في الإصل علاجاً- إلا أنه يمكن أن يكون خطيراً على صحة المريض إذا ما أُخذ على غير وجهه الصحيح، وهذا الحد في تأثير الدواء لا يمكن الوصول إلى تحديده إلا من خلال التجربة المتكررة، حتى يستطيع الطبيب أن يحدد ما هي الجرعة المناسبة بالضبط . وهو ما دفع الصحاري إلى تعيين درجات تأثير الدواء ، وسماها المراتب، فحصرها في أربعة مراتب، هي [69] :

الدرجة الأولى : إذا لم يكن تأثير الدواء في بدن الإنسان محسوساً إحساساً ظاهرياً.

الدرجة الثانية : إذا مال البدن إلى التحسن ولم يضره الدواء بشيء .

الدرجة الثالثة : إذا ضر الدواء البدن ولم يبلغ القتل .

الدرجة الرابعة : إذا بلغ القتل .

ويجعل الصحاري مدار هذه المراتب مناط التجربة ، حيث يقول بعد ذكر لهذه المراتب أو الدرجات : « وكل ذلك فهو في المقدار المخصوص من الدواء، فإن تمادى المريض في الاستعمال على غيره وهن الطبيب؛ أضر الدواء ضرراً بليغاً » [70] .

لقد أكسبت التجربة الصحاري المعيار العلمي للحكم على القضايا التي يعرض لها في كتابه ، وكأنه قد اطمأن إلى ذلك، وهو كذلك فعلاً لدرجة أن الأمور لديه - في بعض الأحيان- تكون محسومة إذا ما كانت تتعلق بشيء قد تأكد منه فعلاً، فعلى سبيل المثال :

([67]) المصدر السابق، (371/1) .

([68]) المصدر السابق، (37/1) .

([69]) المصدر السابق، (72/2-73) .

([70]) المصدر السابق، (73/2) .

عندما أخذ الصحاري بشرح كلمة " النَّبيث " وذكر أنه ضرب من سمك البحر نقلاً عن ابن الأعرابي اللغوي. ثم يستطرد في الحديث قائلاً : « ... وفي حديث أبي رافع: أطيب طعام أكلت بالجاهلية نبيثة سبع. أراد لحماً ودفنه السَّبع لوقت حاجته في موضع؛ فاستخرجه أبورافع وأكله » [71] . ثم يقرر نتيجة مؤداها : « فإن صح هذا فلابد أنه عاش معلولاً » [72] .

فالصحاري حكم هنا وفق ما أملاه عليه مخزونه العلمي، وهذا الحكم يتعلق بقضية لا يمكن معرفة مآلها أو ليس لها طريق إلا بالتجربة ، فالصحاري يتحدث هنا علاقة بين : بكتيريا – إنسان. ويستخدم صيغة تفيد التأكيد على أقل تقدير بأن من يأكل اللحم على هذه الصفة، فهو سوف يظل مدة حياته مصاب بعلة ما .

وعموماً لقد شكلت التجربة عنصراً جوهرياً في منهج الصحاري العلمي الذي اتبعه في كتابه " الماء" من أوله إلى آخره .

غير أن هذا الكلام لم يميز فيما يرد على البدن بين الغذاء والدواء، والحقيقة أن التمييز كان واهياً؛ إذ نرى ابن سينا يناقش العقاقير ، كالأفيون والسموم والأغذية كاللحوم والباذنجان، في باب واحد هو باب الأدوية المفردة .[73]

إن التجربة تعد ركيزة أساسية في المنهج العلمي عند علماء المسلمين التجريبيين، وعليها مدار العلوم التجريبية، وهذا الأمر قد حظي بعناية العلماء، وحرصوا على بيانه في مقدمات مصنفاتهم، إذ « يذكرون منها أصولاً ويشرحون من منافعها فصولاً ... صححها بالتجارب ذووا القرائح الذكية » [74] .

ويمكن القول إن التجربة في أطوارها التاريخية قد اتخذت مواضع مختلفة من حيث الأهمية في المنهج العلمي وأصبحت تمثل مع القياس الركيزتان الأساسيتان في العلوم التجريبية، ولكن منهم من أخذ بالتجربة فقط، ومنهم من اخذ بالقياس وحده، ومنهم من جمع بينهما، وخاصة في بيئة الحضارة الإسلامية إذ أصبحا من عناصر

([71]) المصدر السابق، (390/3) .
([72]) المصدر السابق، (390/3) .
([73]) بول غليونجي: الأسس النظرية للطب الإسلامي (مقال)، (ص214) .
([74]) صاعد بن الحسن: التشويق الطبي، (ص58) .

المنهج العلمي في العلوم التجريبية ، بل وأصبحت التجربة مدار البحث في هذه العلوم [75].

إن مرحلة التجربة هي المرحلة التي يحاول العلماء فيها استخلاص المبادئ العامة التي تنظّم الظواهر التي تم تصنيفها في مرحلتي: الملاحظة ، والفروض. والعملية العقلية المنطقية التي تقوم عليها هذه المرحلة هي الاستقراء [76] ، والذي لا يعني فقط تلك العلاقة السببية التي توجد بين ظاهرتين ، وإنما يعني أيضاً قدرة العقل على تحديد شكل من الأشكال أو مسار من المسارات ، ولكن يعني أيضا استخلاص مجرد فكرة تمكننا من فهم الإدراكات المتفرقة وغير الدقيقة التي حصلناها عن الأشياء، وكان العقل الإنساني انتقل – تاريخياً- من مرحلة إدراك العلاقات بين الأمور المتشابهة إلى مرحلة إدراك العلاقات بين الأمور المختلفة عن طريق الاستقراء ، وهذا الأمر قد أدركه علماء المسلمين في زمن مبكر ، وهو ما قصده ابن ربن الطبري عندما قال : « فإن الرعاة والفلاحين والملاحين مع غلظهم وقلة نظرهم في الآداب قد يعرفون بالتجارب أشياء لطيفة » [77] . وكأن الطبري يريد القول بأن التجربة تتيح –عن طريق الاستقراء- لنا اكتشاف العلاقات الخفية بين الظاهرتين أو أجزاء الظاهرة الواحدة والتي تكون في كل علم دون غيره ، وهذا بالضبط ما يعرف بالتراكم المعرفي الذي يعد نواة أو جوهر تطور الفكر العلمي في تاريخ العلوم .

وجملة القول فيما يخص التجربة ، أن علماء المسلمين التجريبيين قد اعتمدوا التجربة في حقل العلوم التطبيقية، فكانت تجارب صححت آراء من نقدهم ، وتجارب فندت ما توصل إليه الأوائل ، وتجارب أضافت إلى المعرفة العلمية أشياء جديدة . وهي بذلك كانت أداة النقد الرئيسية عند علماء المسلمين وجعلوا هذا الأمر شعارهم المرفوع وفي مقدمات مصنفاتهم. ولم تكن التجارب بسيطة أو ساذجة بل كانت في بعض الأحيان

([75]) ابن فاتك: مختار الحكم ومحاسن الكلم، (ص45-46) .

([76]) الاستقراء : هو أن تنتج حكماً على كلي لوجوده في جزئياته كلها أو بعضها. فهو استدلال يبدأ بعدد معين من القضايا الجزئية المتعلقة ببعض الوقائع أو الأفراد لينتهي إلى قضية كلية تتعلق بكل الوقائع أو الأفراد من جنس معين. وتطلق عبارة الاستقراء التقليدي على خطوات المنهج التجريبي ، وهي: الملاحظة، وفرض الفروض، وتحقيقها. ابن سينا : عيون الحكمة ، (ص10). محمد عبدالله : معجم مصطلحات المنطق وفلسفة العلوم، (ص17-19) .

([77]) فردوس الحكمة ، (ص517) .

معقدة جدا ، ولا نريد أن نبالغ بأن معظم الأجهزة العلمية التي استخدمت في التجارب كانت من صنع أيديهم ، وهذا إنجاز آخر لنا معه وقفة بعد قليل .

إن الخطوات البحثية الثلاثة الماضية - الملاحظة ، والفرض ، والتجربة- تشكل في مجموعها مرحلة أولى في البحث التجريبي عند المسلمين ، والتي ما يطلق عليها (مرحلة التحليل analysis)[78] ، ثم تليها مرحلة ثانية ، وهي ما تعرف بـ(مرحلة التركيب synthesis)[79] أو (مرحلة التقنين)، وهي تمثل الخطوة الرابعة في البحث التجريبي ، حيث تجمع النتائج الجزئية المتناثرة ، ويصاغ فيها قانون كلي تبنى عليه المعارف ، وهكذا يصبح العلم الحسي الجزئي أساسا للحكم العقلي الكلي من خلال عملية "التحليل والتركيب" [80] ، لأن القضايا الحسية لا تكون إلا جزئية ، ولا سبيل إلى صدق القضية الكلية في مجال الطبيعيات إلا من خلال التجريب للجزئيات المشاهدة المحسوسة ، مثل : قانون الجاذبية ، وقانون الطفو ، ... الخ .

وهكذا تكون مراحل البحث التجريبي (الاستقرائي) قد اكتملت ، والبحث التجريبي نفسه يعد أحد ملامح المنهج العلمي في العلوم التجريبية عند المسلمين .

([78]) التحليل: منهج عام يراد به تقسيم الكل إلى أجزائه، ورد الشيء إلى عناصره المكونة له مادية كانت أو معنوية. والتحليل الهندسي هو التوصل إلى العناصر التي يتوقف عليها حل مسألة رياضية. والتحليل على ضربين: تحليل نظري، وتحليل واقعي. الأول يجري في داخل الذهن فحسب، والثاني يتم في واقع التجربة. محمد عبدالله: معجم مصطلحات المنطق وفلسفة العلوم، (ص48-49) .

([79]) التركيب: وله معان بحسب العلوم. وهو عند الفلاسفة القدماء يقوم على رد الكثرة إلى الوحدة، واللفظ المركب أو المؤلف هو الذي يدل على معنى، وله أجزاء منها يلتئم مسموعه ، كقولنا : الإنسان يمشي. والتركيب في العلوم الطبيعية: هو منهج يرمي إلى تكوين مادة جديدة من عناصر أو مركبات أبسط منها وبخاصة في الكيمياء. جميل صليبا: المعجم الفلسفي ، (1/268-269). يوسف كرم وآخرون: المعجم الفلسفي، (ص40).

([80]) لعمليتي التحليل والتركيب دور مهم في عملية المعرفة. ففي الوقت الذي يقوم التحليل على تقسيم الموضوع الجاري دراسته إلى أجزائه المكونة له للحصول على معرفة جديدة، فإن التركيب هو توحيد الأجزاء و الخصائص والعلاقات التي يفصلها التحليل، في كل واحد. فالتركيب يكمل التحليل وتضمهما معاً وحدة لا يمكن فصمها. وأكثر ما تظهر هذه العملية في العلوم الرياضية. فالتحليل يعني البحث عن الحل، أو تصيد الحل. ويتم بأن تعتبر المسألة محلولة ثم يستنتج من مفروضاتها نتائج متتابعة تفضي إلى استنتاج أن ما يطلب معرفته يمكن، أو لا يمكن أن يعرف. فإذا كان لا يمكن أن يعرف فالمسألة محال، وإذا كان يمكن أن يعرف يأتي دور التركيب وهو عمل ما يلزم من إنشاءات وأعمال اقتضاها التحليل إلى أن يعرف المطلوب معرفته. وينتهي الحل ببرهان أن ما وجد يحقق شروط المسألة . ابن سنان: رسالة في التحليل والتركيب، (ص69). الموسوعة الفلسفية، (114-115).

المعرفة عند الصحاري

أولاً : موقفه من العقل كأداة للمعرفة

لقد كان الإيمان بكرامة الإنسان، وبقيمته الذاتية، وباحترام عقله وحريته الفكرية المنضبطة، من المبادئ والمرتكزات التي قامت عليها حركة العلم ، وخاصة العلوم التجريبية في الحضارة الإسلامية .

ولا تجاوز للحقيقة عند القول بأن مجمل الطروحات العلمية التي ظهرت منذ (القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي) ، وبخاصة عند المتكلمين- دفاعاً عن الدين – أن واقع التحدي بالنسبة للمنهج الإسلامي منذ البداية يتمركز في مدى عقلانية هذا المنهج ومدى مسايرته للمطامح الإنسانية المتغيرة ؛ مما يعكس الطابع العقلاني الذي أخذ يهيمن على الواقع الثقافي في تلك المرحلة المهمة من مراحل تطور العلم في كنف الإسلام وحضارته .

وليس من المقبول علمياً أن ندلف إلى الحديث عن العقلانية قبل التعريج على (العقل) كأداة التكليف والعلم كما رآه علماء المسلمين ، ولكن تبقى الصعوبة قائمة حول تحديد ماهية العقل، وصعوبة إيراد حد جامع مانع له؛ بسبب تعدد معانيه، الأمر الذي جعل الغزالي يعتذر للقارئ في أبحاثه عن العقل ؛ لأنه ((اسم مشترك تطلقه الجماهير والمتكلمون والفلاسفة على وجود مختلفة، والمشترك لا يكون له حد مانع)) [81] .

([81]) الغزالي : معيار العلم، (ص207) .

هذه الصعوبة بدأت مع أقدم تعريف للعقل – في دائرة البحث الفلسفي / العلمي- وصل إلينا ، وهو لجابر بن حيان الكيميائي (ت200هـ/816م تقريبا) الذي عرّفه بقوله: ((العقل ... الجوهر البسيط القابل لصور الأشياء ذوات الصور والمعاني على حقائقها ، كقبول المرآة لما قابلها من الصور، والأشكال ذوات الألوان والأصباغ)) [82] . وهو تعريف مادي أكثر منه فلسفي .

وابن حيان كما هو معروف يمثل خلاصة التقاء العقلانية (الكلامية والعلمية والفلسفية) في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي ؛ لذلك حرص على أن يكون مفهوم العلم لديه جامعاً لهذه الروافد، إذ تحدث عن (حد العلم الطبيعي) قائلاً : ((إن ما غاب عن الحواس يتجلى به العقل الجزئي من أحوال العلة الأولى ، وأحوال نفسه، وأحوال الفعل الكلي، والنفس الكلية والجزئية فيما يتحصل به الفضيلة في عالم الكون ويتوصل به إلى عالم البقاء)) [83] .

ولا نريد حقيقة أن نقف طويلا أمام المعنى اللغوي للعقل عند العرب، وهي واحدة في المبنى، متعددة في المعنى . فهي معان متكررة في معاجم اللغة [84] مع تعاقب السنين والدهور دون إضافة جوهرية .

فالفراهيدي يقول : ((العقل : نقيض الجهل. وعقل يعقل عقلاً فهو عاقل ، والمعقول: ما تفعله في فؤادك أو ما يفهم من العقل . وهو والعقل واحد)) [85] .

أما الصحاري فيذهب إلى أن ((العقل لغة: المنع؛ لمنعه صاحبه من العدول عن سواء السبيل))[86].

أما **المعنى الاصطلاحي** للعقل - وهو ما يهمنا في قضية التفكير العلمي - فإنه يتشعب ويتنوع بتنوع التيارات الفكرية والمباحث الفلسفية والكلامية ، وهو أمر إيجابي يحمل في طياته دلالة على رحابة ميدان العلم في الحضارة الإسلامية من جهة، والحيوية الفكرية التي يتمتع بها علماء المسلمين - بصرف النظر عن مذاهبهم واتجاهاتهم- في تناولهم لقضايا العلم بواسطة آلته (العقل) من جهة أخرى.

([82]) رسالة في الحدود، (ص177) .
([83]) المصدر السابق، (ص171) .
([84]) انظر: ابن منظور : لسان العرب، (11/458-466). الرازي: مختار الصحاح، (ص393-394) .
([85]) العين، (3/8) .
([86]) كتاب الماء، (3/61) .

ولقد كفانا أبو محمد الصحاري مؤونة تتبع مفهوم العقل الاصطلاحي عند الفلاسفة (الحكماء) والمتكلمين – وهذا ما يهمنا في هذه الدراسة [87] – حيث يقول : ((وهو اسم مشترك لمعان عدة . أما عند **المتكلمين** فقد أطلق على ثلاثة :

أحدها : صحة الفطرة للإنسان. وحدّه : بأنه قوة يجود بها التميز بين الأمور الحسنة والقبيحة .

ثانيها: ما يكسبه الإنسان بالتجارب من أحكام الله . وحدّه : بأنه معان مجتمعة في الذهن تستنبط بها الأغراض والمصالح .

ثالثها : بأنه هيئة مجودة للإنسان في حركاته وسكناته وكلامه واختياره من الجزئيات من أجل غاية مظنونة أو معلومة .

وأما عند **الفلاسفة (الحكماء)** فمشترك أيضاً بين ثلاثة معان :

الأول : العقل النظري : وهو قوة للنفس الناطقة تقبل ماهيات الأمور الكلية من جهة ما هي كلية .

الثاني : العقل العملي : وهو قوة للنفس ، وهي مبدأ القوة الشوقية إلى ما يختار من الجزئيات من أجل غاية مظنونة أو معلومة .

الثالث : أن يطلق على واحد من العقول العشرة)) [88] .

والعقل عند الكندي: « علة أولى لجميع المعقولات » [89]. وعرّفه إخوان الصفا بأنه: ((قوة من قوى النفس الإنسانية التي فعلها التفكير والرؤية والنطق والتمييز)) [90] . أما مسكويه فيرى أن العقل « ميزان العلم والدين)) [91] ، معبراً عنه بالذكاء والتذكر والتعقل وسرعة الفهم وقوته وصفائه، وسهولة التعلم. ويفرق بينه وبين التعقل بأن الأخير هو ((موافقة بحث النفس عن الأشياء بقدر ما هو عليه)) [92] . فالعقل عنده

([87]) تأتي أهمية الاقتصار على الفلاسفة والمتكلمين ؛ لأن المشتغلين بالعلوم التجريبية يصنفون بين هاتين الفئتين ؛ إذ إن مفهوم العقل عند أهل الشريعة ليس من صميم هذا البحث، وإنما نوقش في الدراسات الشرعية والدراسات المتعلقة أو الباحثة في العقل ومفاهيمه .

([88]) كتاب الماء، (3/61-62) .

([89]) رسالة في العقل، (ص1-5) .

([90]) رسائل إخوان الصفا، (3/232) .

([91]) الحكمة الخالدة، (ص274) .

([92]) المصدر السابق، (ص274) .

إذاً سلاح الإنسان العاقل؛ ((إذ لا يعقل الإنسان الشيء إلا بعد التفكير والتطلب والتميز)) [93] .

أما الجرجاني فقدم لنا ثبتاً بحدود مفاهيم العقل المتداولة بين الفلاسفة والمتكلمين واللغويين ، ويقول : ((العقل: مأخوذ من عقال البعير ؛ يمنع ذوي العقول من العدول عن سواء السبيل . والصحيح أنه جوهر مجرد يدرك الغائبات بالوسائط ، والمحسوسات .

إن عناية العلماء بالمفاهيم الخاصة بالعقلانية أو تنظوي تحت ظلالها يحمل في طياته أهمية الأمر بالنسبة لهم. فحديثهم عن مصطلحات: الفكر، والذهن، والفطنة ... وغيرها يدل على شدة عنايتهم، ومحاولتهم الحثيثة لوضع أُطر وقواعد لمصطلح العقل. إذ نرى مسكويه يتحدث عن مصطلح " الفكر " ويعتبر ((مفتاح كل علم، ومستنبط كل حكمة، وكاشف كل مستور)) [94] أي الرؤية التي يحملها صاحبها في ذهنه ، وتشكل موقفه إزاء القضايا العلمية، وتراه يخاطب المفكرين قائلاً لهم : ((فأحيوا بالفكر موات الهمم، واجتهدوا بها دفائن الحكم، واكتشفوا ضباب الغفلة)) [95] فتناول مصطلح الفكر بشيء من التوسع والمقارنة بين تعريف اللغويين والتجريبين والفلاسفة ليكتمل بناء المصطلح حيث يقول : ((الفكر: وقد يقال: الفَكر هو حركة ذهن الإنسان فيما عنده من الصور والمعاني المركبتين والمتصلين لتحصيل مطلوب ما. أو هو: إعمال الخاطر في شيء وإن شئت قلت : هو استعراض ما في الذهن ليوقف على ما يتوصل به إلى مطلوب ما .

وعن الكندي : الفكر : حركة ذهن الإنسان في المبادئ ليتوصل بذلك إلى المطالب.

وقال شيخنا العلامة (يقصد ابن سينا) : الفكر في الحقيقة تقيس النفس للصور والمعاني التي في داخل الدماغ ليقف على ما به يتوصل إلى مطلوب ما .

وقال سيبويه : لا يجمع الفكر ولا العلم ولا النظر)) [96] .

([93]) مسكويه : تهذيب الأخلاق، (27) .

([94]) مسكويه: الحكمة الخالدة ، (ص291).

([95]) المصدر السابق، (ص291).

([96]) الصحاري: كتاب الماء، (157/3-158) .

ثم نراه يناقش مصطلح (الذهن) ومفهومه عند أهل اللغة والفلسفة فهو عند أهل اللغة ((الفهم والعقل والفطنة والحفظ والقوة)) [97] أما عند الفارابي فيعني ((قوة للنفس، بها تتهيأ وتستعد للشعور بمعاني الأشياء والحكم عليها)) [98] .

كما تعرض الصحاري لمعنى (الفطنة) فقال : ((الحِذق وسرعة الإدراك وسرعة الشعور)) [99] ثم يأخذ في الحديث عن الفرق بين الإدراك والشعور وصلتهما بمراحل الوصول إلى المعنى .

ولقد توّج ابن خلدون جهود المفكرين الذين سبقوه بأن سار بالنزعة العقلية – التي انطلقوا منها- نحو الوجهة العلمية الصارمة التي هي مفتاح تقدم الأمم[100] .

فالعقلانية إذاً: هي نظرية فلسفية ، تجعل من العقل أساس كل معرفة ممكنة. وتبعاً لذلك؛ فإن العقل هو الوحيد الذي يحمل في ذاته إمكانية التعرف على الأشياء والواقع قبل معرفتها بواسطة التجربة والتجريب . أي أن يكون الإنسان إنساناً متعقلاً وهو الذي ((يعتمد العقل في حياته كأداة لكل تفكير نظري يهم معارفنا المجردة ، ولكل تفكير عملي يهم شؤون الإنسان الحياتية ، فتكون أخلاقه مطابقة لنمط تفكيره العقلي)) [101] .

ثانياً : التكامل بين العلوم

ومنها العلوم التجريبية ، وذلك من حيث المعالجة ، والمنطلقات في التعاطي مع النص العلمي ، وهو ما لفت انتباه البيهقي (ت 565هـ) عندما وصف يعقوب الكندي بأنه « قد جمع في بعض تصانيفه بين أصول الشرع وأصول المعقولات » [102] . وكأنه هنا قد استعار شكلاً يونانياً لمضمون إسلامي صريح .

إن التعليمات التي تضمنتها نظرة الإسلام من خلال مصدرية : القرآن الكريم ، الحديث الشريف للمرض والصحة والوقاية والعلاج – على سبيل المثال – قد غيرت المفاهيم نحو هذه الجوانب الطبية ، ووضعت حداً للخرافات الشائعة عن أسباب

([97]) المصدر السابق، (116/2) .

([98]) المصدر السابق، (116/2-117) .

([99]) المصدر السابق، (154/3) .

([100]) ابن خلدون : المقدمة، (ص34). حامد خليل : النزعة العقلية في الفلسفة العربية (مقال)، (ص134-135).

([101]) فتحي التريكي : العقل والحرية، (ص36-39) .

([102]) تاريخ حكماء الإسلام ، (ص 41).

الأمراض ووسائل علاجها ، ووضعت علماء الطب على الطريق الصحيح ليبحثوا في الداء والدواء ليعلم من لم يكن يعلم [103].

ومع معرفة الأطباء بنظرية أرسطو في السببية فقد أهملوها وأخذوا بالنظرية الأفلاطونية المحدثة التي تحدثت عن علل قريبة وأخرى بعيدة ، كما طبقوا مفهوم السببية المتعددة ، مستفيدين تماماً من أبحاث علماء أصول الفقه في قواعد تحديد العلة. ولا شك أن السمة الموسوعية لعلماء المسلمين في الطب قد مكنتهم من الاستفادة من نتائج علوم كثيرة ، ومن مناهجها . فالرازي (ت321هـ) قد أسرف في استعمال " طريق الدوران" ، و " التلازم في التغير " عند علماء أصول الفقه في نقد لجالينوس . وكذلك فعل سعيد بن هبة الله (ت 495هـ) في استعماله " برهان الخلق " لتنفيذ آراء القدماء في قضايا كثيرة[104] .

ونجد عن الصحاري (ت 456هـ) نماذج عدة لأثر الكتاب والسنة في تناوله للقضايا الطبية . ففي معرض رده على أصحاب الرأي القائل بأن الأمراض المعدية كالجذام والجرب معدية بطبعها . وقبل أن يخوض في مناقشة أصحاب هذا الرأي ، فإننا نراه يُقعِّد لرأيه من الناحية الشرعية مستشهداً بأحاديث المصطفى ﷺ في أمر العدوى ، ومنها قوله ﷺ : « لا عدوى ولا طيرة » ، ومستعيناً بذخيرته اللغوية في فهم المقصود بالعدوى حتى وصل إلى رأيه النهائي في هذه المسألة قائلاً: « واختلفوا في معنى قوله: " لا عدوى " وأظهر ما قيل في ذلك أنه نفي لما كان يعتقده أهل الجاهلية من أن هذه الأمراض تعدي بطبعها من غير اعتقاد تقدير الله - Y - لذلك. ويدل على هذا قوله ρ : « فمن أعدى الأول » يشير إلى أن الأول إنما جُرب بقضاء الله وقدره ، فكذلك الثاني وما بعده » [105].

([103]) حول هذه الجزئية ، انظر : خوسيه بارسلو : أثر العلوم الإسلامية في تطور الطب ، ضمن أبحاث المؤتمر العالمي الأول من الطب الإسلامي ، منظمة الطب الإسلامي ، ومؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، الكويت ، ع1، 1401هـ / 1981م، ص 115- 120. وأيضاً ، إبراهيم الصياد : نظرة الإسلام للطب ، ضمن أبحاث المؤتمر نفسه ، (ص 56- 66).

([104]) سحبان خليفات : مناهج المعرفة الطبية عند الأطباء العرب والمسلمين ، محاضرة ألقيت في معهد التراث العلمي العربي ، جامعة حلب ، 1996م .

([105]) كتاب الماء ، (1/ 254) .

وعندما ناقش موضوع " الخمر " ونواحيه الطبية والكيميائية ، والآراء التي قالت بأثره الكيميائي والدوائي في علاج الأمراض وقت الضرورة . فإنه يُقعِّد لهذه المسألة أيضاً تقعيداً شرعياً ، وبعد ذلك أعلن الرأي الذي يراه حقاً : « وثبت عندنا أنه قليله وكثره حرام ، ويُفَسِّق شاربه ، ويلزمه الحد » [106] ،ثم يأتي إلى تفنيد الآراء التي تناولت هذه المسألة ، وحصرها في خمسة آراء ، مبدياً ميله للرأي القائل بعدم جوازها طبياً بأي حال من الأحوال[107] .

ويبقى عمل أبي محمد الصحاري(ت 456هـ) المتمثل في كتابة " الماء" ، الأبرز من بين كل مصنفات علماء فترة الدراسة ، في نموذجية التآخي بين العلوم التجريبية واللغة العربية ، وبصورة مباشرة . فقد عرف قيمة اللغة في تطور الطب، ولهذا وجه نقده لأقرانه من أطباء عصره بكافة تخصصاتهم الفرعية ، وصيادلته « لخروجهم على لغة العرب ، وتفضيلهم لكلام المعجم » [108]. فالصحاري، وهو الطبيب الممارس واللغوي المتمكن ، لم يتحمل عناء معجمه الطبي اللغوي لو لم يكن ينطلق من إيمان راسخ بقدرة اللغة العربية على إعادة معالجة المفردة الطبية ، والعلمية بشكل عام، وبالتالي " تقويم " العلم ، فما العلوم إلا مفردات يربط بينها علاقة متجذرة في عمقه بين اللفظ والمعنى ، ولذلك نراه عندما قدم امتنانه للخليل بن أحمد الفراهيدي ، وفضله في التأثير عليه ودَفْعِه إلى عمل علمي مشابه لكتاب " العين " للفراهيدي ، نراه يقدم ما صنعه هو من إيجاد المفردات اللغوية التي تتلائم مع المصطلح الطبي ، وهو ما قد اتضح في موضوع " استقرار المصطلح العلمي " ، قبل أن يلجأ إلى كتاب الفراهيدي ، ويذكر بقوله : « وعنه أفدت تقريب ما كنت أصلت من أسماء ومسميات » [109]. وهذا التأصيل منه قد ألزمه – كما يقول هو – ذكر ((أسماء النبات ، والحيوان ، وأعضاء بدن الإنسان، مما يوجبه ذكر الداء أو الدواء)) [110]. أي أنه لابد وأن رجع للمصنفات

([106]) المصدر السابق ، (43/3) . بالطبع الصحاري لم يأت بجديد في هذا الأمر ، وإنما قصده بسط الأمور أمام القارئ بشكل منظم حتى يعلم القارئ المنطلقات التي سيطرت على رأي الصحاري ، وهذا أسلوب العلماء المنهجيين ولا شك .

([107]) المصدر السابق، (3/ 43) .

([108]) الصحاري : كتاب الماء ، (1/ 31) .

([109]) المصدر السابق ، (1/ 31) .

([110]) المصدر السابق ، (1/ 30) .

التي وضعها علماء العربية في تلك الموضوعات ، وهي كما رأينا بالعشرات، وهو ما يدل على عظم أثر اللغة في إقامة المادة العلمية المنطوقة لعلم الطب والصيدلة على وجه الخصوص عند الصحاري .

وباستعراض كتابه ، فإنه يمكن الجزم بأن الصحاري لا يكاد يعرض لمصطلحاً طبياً إلا ويأتي بمدلوله في اللغة ، مستشهداً بأقوال علماء العربية ، من أهل اللغة والأدب[111]. ومن شدة التزام الصحاري بهذا المنهج ، فإن القارئ قد يذهب به تفكيره إلى التقرير بأن كل ما يتعلق بالمصطلح العلمي الطبي عند الصحاري ، إنما يبدأ من باب اللغة ، وكأن الأخيرة هي قنطرة عبور المصطلح نحو الكمال المعرفي ، وهو كذلك بالفعل عند الصحاري.

ويمكننا أن نقدم تناول الصحاري لمصطلح " أمم"[112] كنموذج أو مثال على استغلال الصحاري للترادف اللغوي الذي تتميز به اللغة العربية أفضل استغلال في علاج المصطلح طبياً من جوانب شتى وينتاب القارئ العجب من القدرة على تطويع المفردة اللغوية للمصطلح الطبي بكل هذا التمكن .

واتخذت استعانة الصحاري بالجانب اللغوي صورة أخرى تجاوز فيها الاعتماد على اللغة ومفرداتها إلى علماء اللغة أنفسهم ، حتى أنه يعتمد على أبي عبيد القاسم بن سلام (ت 224هـ) عالم اللغة والحديث وغريبه ، وشرحه " العرق الأبهر " [113] حتى لكأنك تقرأ لطبيب لا لعالم لغة . وكتابه ملئ بمثل هذه الاستشهادات ، والصحاري إنما يهدف من وراء ذلك إثارة إنتباه القارئ إلى مصدر معرفي يعتبر هو الأساسي ، باعتباره يتعلق بلغة العلم التي كتب بها ، بغض النظر عن صحتها من عدمها ، ولهذا نراه دائماً يُردف عرضه لرأي أحد علماء اللغة بجملة : « .... هذا في كتب اللغة ، أما في كتب التشريح ، فإنه .... كذا » أو عبارة « ... وفي اللغة : ... كذا ، وطباً : ..... كذا » ، فهو في تقديمه لأقوال أهل اللغة إشارة صريحة إلى أن معرفة أهل اللغة بالكثير من المعارف الطبية أسبق من الأطباء أنفسهم ، فهم بذلك قد وجدوا متكأ علمياً في بداية

([111]) انظر نماذج لذلك على سبيل المثال لا الحصر : المصدر السابق ، (1/ 50-51، 59، 61، 64، 69، 105، 336)، (2/ 297، 396- 397، 442، ، (3/ 16، 17، 157، 158، 216، 259، 260، 476) .

([112]) المصدر السابق، (1/ 75) .

([113]) المصدر السابق، (1/ 158) .

عملهم. والصحاري هنا ، بلا شك ، إنما يؤرخ للمصطلح العلمي ، وبالتالي للمعرفة الطبية .

ثم إن اللغة وغناها اللفظي كانت المعين الذي يفزع إليه الصحاري في مواجهة خصومه العلميين ، وفي نقده للآراء التي يعرض لها في كتابه ، وخاصة المتكلمين والفلاسفة . فعندما ناقشت آراءهم المتعلقة بتحديد موضع الدماغ ، وقولهم بأنه مستقر في القلب ، مستشهدين بقوله تعالى : { ⓿🙍⑤➔♦⊙&✡⅄✟❄▣ ⅄⍓✞⌫✟❄➴✞☺⑤ ♦⑦🡅♦❄⌫♦➴ ⇔➢♦↗✞⌦ ✟➲🡅✡➴✟❷✟❄➴ ✠¤⅄⊙☺☺✞②⇳✍⑤ ▣❄✟⍰⅄⌫✡➷⌫✡➲✟➲🡅✡⌫ ⓾❄✡↗✟➲🡅✡⌫ ⑥✟🖳 }[114]، رد عليهم الصحاري قائلاً : « ولا نسلم لهم بذلك، لأن الآية جارية على مجرى كلام العرب، فهم يطلقون القلب على القلب والعقل ، كما أطلقوا الكبد على الكبد والقلب . وهم لا يقصدون الآلة المسماة بذلك ، ولكنهم يريدون الأحاسيس والعاطفة ، وكل ذلك لا يكون إلا من العقل الذي مستقره الدماغ ، ومنه تنزل إلى الآلات والأعضاء »[115]. وغيرها من الأمثلة التي يحفل بها كتاب الصحاري .

علاقة الفلسفة بالعلوم التجريبية

كان لحركة الترجمة – وكما سبق أن رأينا- الآثار البعيدة في تعريف المسلمين على كتب الفلسفة اليونانية ، وأفكار اليونانيين الفلسفية ، وقد عرف المسلمون المعلومات الكافية عن طاليس ، وانكسندريس ، وانكسمانس ، وفيثاغورس ، وديموقرطس ، وكذلك كانت لهم معرفة واسعة بأفكار سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو أشهر فلاسفة اليونان عند المسلمين .

ولسنا هنا بصدد الحديث عن موقف الإسلام من الفلسفة اليونانية ، فذلك مجال لا يهمنا في دراستنا هذه، وإنما نحن هنا نحاول العثور على نقاط التماس ، أو قل التنقيب في الرافد الفلسفي للثقافة الإسلامية . على أنه يجب علينا الإشارة إلى النزاع بين الإسلام والفلسفة ، الذي بدأ منذ اللحظات الأولى التي دخلت فيها تلك الفلسفة في العالم

([114]) سورة الحج ، الآية (46) .
([115]) كتاب الماء ، (3/ 62) .

الإسلامي، إلا أن هذا النـزاع استمر أمداً طويلاً لم تخمد جذوته حتى بلغ أوجه حين أعلن الغزالي تكفير فلاسفة الإسلام أنفسهم باسم الإسلام.

ولا شك أن الفلاسفة المسلمين اعتمدوا اعتماداً كبيراً على الفلسفة اليونانية ، ولكنهم وفقوا إلى بعض الابتكارات والتجديدات في أبحاثهم الفلسفية ، إذ علمنا أن الاتصال بالثقافة اليونانية قد نشأ في العقود الإسلامية ، فقد ذكر ابن كثير أن علوم الأوائل انتشرت في العالم الإسلامي في القرن الأول الهجري[116] ، وتتخذ العلاقة بين الفلسفة ، وموضوعاتها الثلاثة : المنطق ، والطبيعيات ، وعلم الأخلاق، وبين العلوم التجريبية ثلاثة أنماط من العلاقة، هي :

وظل الموقف من الفلسفة نفسه عند أبي محمد الصحاري (ت 456هـ) ، عندما اعتبر العلماء التجريبيين فلاسفة ، ولذا نجده حريص كل الحرص على الإتيان بآراء الفلاسفة، كلما كان هناك صادر عنهم في موضع معين كقوله : « وعند الفلاسفة ...كذا »[117]، أو « ويرى بعض الأطباء والفلاسفة ... كذا »[118]، فعندما أورد الآراء المختلفة في تفسير " نظرية الإبصار " كان من بينها رأي الفلاسفة ، ولغة : « وأكثر الفلاسفة ينقضون هذا الرأي ، ويقولون بأن إدراك النفس لهذه الأشياء إنما يكون بتوسط إدراك القوى المخصوصة بها ، ثم ينتقل ذلك الإدراك إلى النفس . والحق أن الأمر كذلك. وللفلاسفة في إدراك المبصرات رأيان: أحدهما . رأي الرياضيين وأكثر الأطباء .. وثانيها، رأي أكثر الطبيعيين ، ....»[119].

والصحاري هنا إنما يضع الأمور في نصابها أولاً ، ثم يبدأ باستعراض الآراء ومناقشتها، إما مؤيداً لها أو مخالفاً ، فهو يقدم أولاً القول الذي قال به الفلاسفة ، على اختلاف تخصصاتهم ، ثم ينتقل إلى تفنيد آراء كل فريق بحسب تخصصه العلمي .

أما تأثر الصحاري بالمنطق في منهجه فظاهر ، فهو يميل إلى تفريع المسائل، وتفنيده للجزيئات المكونة لمفهوم علمي واحد ، وهو هنا إنما يستعين بنظرية " الحد" فعندما قدم تعريفه للصحة ، وبعد أن عرفها بأنها : « هيئة طبيعية لبدن الإنسان، تكون

([116])

([117]) كتاب الماء ، (1/ 85) .

([118]) المصدر السابق ، (86/1) وهناك الكثير على ذلك النحو في ثنايا الكتاب .

([119]) المصدر السابق، (1/ 131- 132) .

الأفعال كلها بها سليمة » ، أخذ في بيان حد الجزء وصولاً للمعنى الكلي المقصود، كقوله : « فقولنا " هيئة " أي : .... كذا . وقولنا " طبيعية " : ..... كذا . وقولنا "تكون الأفعال " ... كذا ، .. الخ » [120].

ولكن يكون نقده دقيقاً وموجهاً نحو رأي محدد ، حرص الصحاري على استيعاب كل الآراء المتعلقة بالموضوع المراد تجليته . ولذا ، فهو يكثر من الإتيان بآراء المتكلمين والفلاسفة فيما يعرض من مسائل ، وهو ما طبقه في استدراكه على الآراء التي تعرض لموضوع " العقل " وهي آراء المتكلمين ومعهم الفلاسفة ، فوجه سهام نقده إليهم فيما ذهبوا إليه من تحديات مكان العقل[121] . وكذلك فعل في تناوله لتعريف " العلة "[122]، ومناقشته أيضاً لمصطلح " القوة " [123] .

فالصحاري في نقده لآراء الفلاسفة، وكذلك المتكلمين إنما هو يحدد موقفه من القضايا الفلسفية الشائعة في عصره ، والتي كانت تتمتع بقدر كبير من التأييد ، وإلا لما حرص الصحاري على تضمينها كتابه .

التفاعل بين العلوم التجريبية بعضها ببعض

ونظراً لأثر الكيمياء في تركيب الأدوية ، فقد وجه أبو محمد الصحاري (ت456هـ) نقده لمن اعتبر الصيدلة جزءاً من الطب ، وإنما هي شديدة الصلة بالكيمياء، « إذ لا يلزم الصيدلي أن يعرف علاجات الأمراض ، وإنما تلزمه معرفة قوة الأدوية البسيطة والمركبة ، وكم مقدار ما يشرب منها، وما الذي يضاف إليها حتى يدفع ضررها » [124].

والصحاري ينطلق في فهمه لكيمياء الدواء المركب خصوصاً ، من أن قواه تظهر« بحسب ما يتركب منه، وبحسب مدة تخمره، واختلاط مفرداته ... وأعلم أن في المركبات أدوية هي عمدة وأصل ، إذا حذفت بطلت القاعدة » [125].فعلى سبيل المثال ، عند حديثه عن " الأُنك" ، وهو الرصاص أو دخان الفضة ، وأثره العلاجي : « وهو

([120]) المصدر السابق ، (2/ 384) .
([121]) المصدر السابق ، (3/ 61- 62).
([122]) المصدر السابق ، (3/ 67) .
([123]) المصدر السابق، (3/ 233- 235) .
([124]) الصحاري: كتاب الماء ، (2/ 393).
([125]) المصدر السابق، (1/ 196) .

عمدة في المراهم ، وسُم قاتل من داخل » [126].فهو يدرك أن تحضير الدواء لابد وأن يكون بمعايير محددة ، الأمر الذي دفعه إلى التحذير عند تحضير " الحنظل " كدواء ، بأن يُبالغ في سحقه ، لأن الجزء الصغير منه إذا صادف الرطوبة ، يربو ويثبت في نواحي وتفاريح الأمعاء ، ووجوب مزجه بالعسل ، ثم يجفف ويسحق [127].

ولقي هذا العلم كل عناية واهتمام من أطباء المسلمين ، وأفردوا له أبواباً في كتبهم، فهذا علي بن العباس الأهوازي (ت372هـ/ 932م) قد احتوى كتابه " كامل الصناعة الطبية " على (37 باباً) في التشريح ، منظمة منسقة ، تفوق فيها الأهوازي على ما أورده العديد من الأطباء في هذا الباب .

وخص ابن سينا (ت 428هـ) التشريح في كتابه " القانون " بفصول طويلة ، جمع فيها كل المعارف السابقة في هذا الفن .

ومما يشير إلى انفراد هذا العلم عن الطب ، ووجود علماء في التشريح خاصة ، على الأقل في النصف الأول من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، عندما نقرأ لأبي محمد الصحاري عبارة سبقت مناقشته لمسألة تدور حول أسبقية التَّخَلُّق قبل غيره: أهو القلب، أم الدماغ، إذ يقول : « واختلف الأطباء وأهل التشريح فميا يتكون قبل غيره » [128].

وكان التشريح عماد عبد اللطيف البغدادي (ت 629هـ) في نقده للآراء الخاصة بالتشريح التي قال بها جالينوس ، ومن تبعة فيها من أطباء المسلمين ، فهو يرى أن مشاهدة شكل العظام، ومفاصلها ، وكيفية انتصابها، وأوضاعها – وهو ما رآه بنفسه في القاهرة – يكسب العالم علماً لا يستفيده من الكتب، ((إما لأنها سكتت عنها، أو لأن لفظها لا يفي بالدلالة عليه، ويكون ما شاهدوه مخالفاً لما قيل فيها، والحس أقوى من دليلاً من السماع » [129].

ثالثاً: تصنيف العلوم عند الصحاري

([126]) المصدر السابق ، (1/ 309) .
([127]) المصدر السابق ، (1/ 375- 376) .
([128]) كتاب الماء ، (3/ 216) .
([129]) عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار ، (ص 103).

ونتجاوز عقدين من الزمان بعد ابن الهيثم لنتوقف عند الصحاري (ت 456هـ) ونقرأ في معجمه اللغوي الطبي " كتاب الماء " نمطاً مختلفاً عن علماء عصره يعتمد في قوامه وبنائه ، على تحرير المصطلح العلمي ، وهو الميدان الذي أبدع فيه الصحاري ، فهو قد اتخذ من سلطة المصطلح مدخلاً لتقسيم موضوعاته ، إذ لم يتعرض – كبقية علماء الفترة – لتصنيف العلوم في إطارها العام ، وإنما أسس لنوع من التصنيف نستطيع أن تطلق " التصنيف المصطلحي " . وإذا ما أردنا أن نأتي بنماذج من كتاب الصحاري ، فهذا يعني أننا سنأتي بكتابه كاملاً في هذا المقام ، لأنه – وبعبارة موجزة – من أوله إلى آخره يقوم على هذه النمط من التصنيف [130].

ويمكن اعتبار عمل الصحاري أو منهج تصنيفه مختلفاً عن بقية الطروحات المقدمة من العلماء الآخرين . ويظهر عنده أثر " السند الأدبي " بقوة ، وذلك بفضل النتاج الفكري الذي استقى منه الصحاري ثقافته ، ومنه نسج منهجه العلمي بدقة متناهية .

رابعاً : تحرير المصطلح العلمي

ولكن يظل أبو محمد الصحاري (ت456هـ) أكثر علماء فترة البحث اهتماماً بقضية المصطلح وحده . ويكفي أن الكتاب الوحيد له، وهو ((كتاب الماء))، إنما هو كتاب معجمي طبي لغوي في المقام الأول؛ ومعلمة في العلوم التجريبية في المقام الثاني . وكان لأبي محمد الصحاري سبح طويل في قضية المصطلح . فو يتميز عن غيره في موضوع حدود الدلالة للمصطلح العلمي؛ محاولته البحث عن إمكانية أن يكون للمصطلح الواحد أكثر من دلالة اصطلاحية في العلم الواحد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى سعيه الحثيث إلى ضبط حد المصطلح إذا كان مفرداً أو لا يحمل إلا معنىً واحداً . هذا عمل الصحاري باختصار في معجمه .

ومما يدل على التقنين في عمل الصحاري هذا؛ أن القارئ يلحظ أمراً بالغ الأهمية في طريقة معالجة الصحاري لحد المصطلح العلمي، وهذه الطريقة تتمحور حول انتقال الصحاري من المعنى العام إلى المعنى الخاص حتى يصل إلى تعريف المصطلح .

([130]) انظر على سبيل المثال : الصحاري : كتاب الماء، (1/31، 156، 323، 324، 336- 337، 351، 352، 359، 365- 366،(2/393، 418، 449- 450، 452، 453، (3/ 148-149، 392-393) .

فعلى سبيل المثال، يبدأ الصحاري بتعريف ((الصناعة)) وأقسامها [131] . ثم ينتقل إلى تعريف ((الطب))، وأدخله في القسم الأول من الصناعة : ما يمكن حصوله بالنظر والاستدلال . وإمعاناً في بيان المقصود بـ ((صناعة الطب))، فإنه يأتي بكل المعاني التي تعنيها هذه الكلمة في لغة العرب، حتى يميز المعنى الذي يرتضيه لهذا المصطلح [132] . ثم ينتقل إلى بيان حد المصطلحات التي تتعلق بصحة الإنسان في هذا الإطار، ((كالعرض)) [133] ، و ((الوجع)) والفرق بينه وبين ((الألم)) [134] ، والمقصود بمصطلح ((الناقة)) [135] . فالصحاري يدرك أهمية فهم حد هذه المصطلحات لتعلق التشخيص السليم والعلاج الناجع بفهمها الفهم الصحيح . بل ويقرر بأن أهمية الإحاطة بالمصطلح الطبي قد ألزمه –فوق ذلك- أن يذكر ((أسماء النبات والحيوان وأعضاء بدن الإنسان مما يوجبه ذكر الداء والدواء)) [136] ، أي أن ضبط التشخيص والعلاج مرهون بالفهم الصحيح لكل ما يتعلق بالتشخيص (بدن الإنسان) ، والعلاج (أسماء النبات والحيوان) .

وعندما أراد أن يعرّف أو يحدد ((حركة الشرايين)) ، فإنه تناول أولاً بيان حد ((الحركة)) حتى يمكن فهم المصطلح الأول . ولذلك أخذ في استعراض من سبقه في تعريفهم للحركة، واتفقوا على أنها : خروج الشيء من القوة إلى الفعل على سبيل التدريج. ولكن هذا التعريف لم يرق للصحاري، وقال معلقاً عليه –ومفصحاً عن دقة الصحاري أيضاً وفهمه العميق : ((وهذا التعريف تعريف تنبيه على الحركة وليس بحد حقيقي)) [137] ثم يقول معقباً : ((والحد الصحيح لها هو : أنها كمال أول لما هو بالقوة)) [138] .

والحقيقة أن الصحاري عندما خاض في مسألة ((حد الحركة)) إنما كان يتحدث عن حركة الشرايين انقباضاً وانبساطاً لإخراج الفضلات الدخانية –كما يسميها

---

(131) الصحاري : كتاب الماء، (418/2) .
(132) المصدر السابق ، (449/2-450) .
(133) المصدر السابق، (23/3) .
(134) المصدر السابق، (477/3-478) .
(135) المصدر السابق، (429/3-430) .
(136) المصدر السابق، (30/1) .
(137) المصدر السابق، (392/3) .
(138) المصدر السابق، (392/3) .

الصحاري- من الدم [139] . فكان ورود مصطلح ((الإخراج)) مدعاة لتعريف ((الحركة)) المسببة لهذا الأمر أو المعنية بحدوثه .

وإجمالاً فإنه يمكن القول بأن تناول الصحاري لمصطلح ((الحد)) إنما كان يتم من خلال عملية تشريح أو تفكيك للمصطلح حتى يصل إلى لب الوظيفة التي يؤديها هذا المصطلح معرفياً [140] .

وكان أبو محمد الصحاري (ت456هـ) يجتهد في إيجاد مقابل بالعربية للفظ الأعجمي، ولذلك نراه – أحياناً – يذكر اللفظ مع الجذر العربي ثم يشير إليه في جذره الأعجمي محيلاً إلى الأول. إلا الألفاظ التي شاعت وأصبحت جزءاً من الصناعة الطبية في عصره، فهو يذكرها باسمها الشائع وتحت الجذر الأعجمي، الأُسْطُقُس (العنصر) ، والأسطوخودس (نبات حار)، والأمبَرياريس (نوع من الحبوب) ، والزُّرُشْك (نوع من الحبوب)، والبُحران (الحد الفصل في المرض) ، والتّرياق (دواء مركب)، واللَيثُرْغُس (مرض النسيان) وغيرها من المصطلحات التي يحفل بها معجمه [141] .

أن سعة العربية وتمتعها بعناصر التطور والتجديد؛ كالنحت، والاشتقاق، والتضمين، والتعريب، والمجاز، وغيرها قد أعان علماء المسلمين، وخاصة النقلة منهم، على وضع المصطلحات العلمية الطارئة .

ولئن كانت مفردات العربية هي المعين الذي كان يفزع إليه حنين بن إسحاق ورفاقه في عملية الترجمة الكبرى التي قاموا بها في أوائل القرن الثالث / التاسع الميلادي، إلا أن تطويع اللغة لخدمة المصطلح إنما ظهرت بصورة ناصعة وجلية في النصف الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بفضل العلم الدؤوب لأبي محمد الصحاري من خلال معلمته المعجمية ((كتاب الماء)) يقول في مقدمته لهذا الكتاب : ((فأنشأت كتابي هذا على حروف اللغة مبتدئاً بالهمزة فالباء فالتاء، حتى آخر الحروف وهو الياء)) [142] .

---

(139) المصدر السابق، (393/3) .
(140) انظر نماذج أخرى في المصدر السابق، (351/1) ، (158/3) .
(141) الصحاري: كتاب الماء (61/1/ 73، 105، 122، 194-195)، (341/2)، (318/3) .
(142) كتاب الماء، (30/1) .

وكان الذي يدفعه بقوة نحو هذا العمل إيمانه الكامل بأن اللغة العربية قادرة على رفد المصطلح العلمي بالمعاني التي تعبر عنه، وهذا الأمر المغَيَّب عن أعين من سبقوه جعله يوجه اللوم لهم قائلاً : ((ولقد بلغنا عن أطباء عصرنا ومتطببيه، وصيادلته، وعطاريه، وأهل الجراحة، والتشريح، والكحالين ما بلغنا من خروجهم على لغة العرب ... فجهدت جهدي أن أعيد الأعجمي من لفظ الأطباء إلى رسوم لسان العرب)) [143] .

والربط بين اللغة والمصطلح العلمي يظهر جلياً مع كل كلمة – تقريباً – يشرحها الصحاري. فتراه يناقش المصطلح من الناحيتين : اللغوية، والطبية، فمثلاً يقول عن ((الصرع)) : الصرع لغة : ... كذا، وطبا: ... كذا .

وكان أبوالريحان البيروني (ت440هـ) عادة ما يتوقف عند المصطلحات التي يرى أنها بحاجة إلى شرح وتمحيص، وإن كانت مألوفة، كحديثه الطويل عن المقصود بـ((الصيدناني)) و ((الصيدلاني)) [144]، وأهمية بيان ذلك بالنسبة لعلاقته بالوصفات العلاجية .

إلا أننا نجد أباعمحمد الصحاري (ت456هـ) – المعاصر للبيروني- أكثر دقة من البيروني، وأكثر عمقاً عندما اعتبر أن الصيدلة صنعة من الكيمياء، إذ لا يلزم الصيدلي أن يعرف علاجات الأمراض - كما يقول الصحاري – وإنما تلزمه معرفة قوى الأدوية البسيطة والمركبة ، كما يرى بأن الصيدلي هو العارف بماهية الأعشاب [145] . ويعد الصحاري أبرز علماء فترة الدراسة فيما يتعلق بالمصطلح العلمي ، فكتابه (الماء) كله يتعلق بالتتبع التاريخي لمسيرة المصطلح وصولاً إلى مرحلة الاستقرار من وجهة نظره هو. ولهذا؛ لديه وقفات نقدية لا تخلو منها معظم صفحات كتابه للآراء التي استدرك عليها. فهو على سبيل المثال- ينتقد كتب التشريح التي اعتبرت ((الأكحل)) عرق من شُعب ((الأبهر))، وإنما سماه الصحاري بـ((الوتيني))، وبـ((الأجوق))، وأنه من شُعب أحد عرقين يخرجان من الكبد [146].

(143) المصدر السابق، (31/1) .
(144) البيروني: الصيدنة في الطب، (ص3-5) .
(145) الصحاري: كتاب الماء، (393/2) .
(146) المصدر السابق، (158/1) .

كما نرى الصحاري يوجه نقده لمن اتهم تعريفه ((للعضلة)) غير جامع .إذ عرفها بأنها ((عضو مركب من العصب والرباط واللحم والغشاء المجلَّل لها فقط ، يتصل طرفها بالعضو المتحرك بالقوة المتحركة بالإرادة بتوسط الانقباض والانبساط)) [147] . ووجه النقد الموجه لهذا التعريف بأنه لم يشمل العضلات التي هي للحفظ لا للتحريك . ويقول الصحاري معقباً : ((قولنا : ((لتحريك العضو بالحركة الإرادية)) علة غائية ، والعلة الغائية يجب أن تكون خارجة عن التعريف)) [148] .

كما وجه نقده لاستخدام مصطلح ((معلول)) لمن أصابته علة أو مرض، وأن ذلك توهم من الناس ؛ لأن استخدامها على الوجه الصحيح إنما يكون عند المتكلمين، وأهل العَروض [149] . وكذلك أنكر على بعض الأطباء الذين حصروا الحميات في ثلاثة أقسام، وهي : يومية، وعقبية، ودقِّيَّة ، لأن ((حمى سُوَنُوخَس)) يعتبرها الصحاري خارجة عن هذه الأقسام الثلاثة، ويقول في هذا الصدد : ((لا تنحصر أجناس الحميات في الأقسام الثلاثة؛ فالواجب في حصرها أن يقال : الحمى لا تخلو إما أن تكون متعلقة بها، فلا يخلو ...)) [150] .

ثم يأخذ في بسط المسألة حتى يضع مصطلح ((الحمى)) في وضعه الصحيح، فيكون التشخيص ، وبالتالي العلاج صحيحين [151] .

خامساً : التجديد المعرفي

وأقدم قبل ذلك من مقدماتهم ما سيحتاج إليه فيما بعد)) [152] . إذ يأتي البيروني بتلك المقدمات التي قالوا بها، ثم يقدم هو برهانه على كل واحدة من تلك المقدمات، ويشغل هذا الأمر بقية صفحات كتابه [153]، ومدعماً براهينه بالرسوم والأشكال ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

---

(147) المصدر السابق، (50/3) .
(148) المصدر السابق، (50/3-51) .
(149) المصدر السابق، (67/3) .
(150) المصدر السابق، (365/1-366) .
(151) انظر نماذج أخرى عند الصحاري في هذا الجانب أوردها في كتابه ((الماء)) (347/1، 359)، (157/3-158، 163) .
([152]) المصدر السابق ، (ص 103).
([153]) المصدر السابق ، (ص 105، 107، 109، 111، 113، 115، 117، 119، 121، 123، 125، 127، 129، 131، 133، 135، 137)، وغيرها من الصفحات .

وكان الدافع الذي أوعز إلى البيروني توجيه نقده لفئة من علماء عصره ركنوا للتقليد، وتلقف الموروث على علاته هو نفسه الذي دفع بأبي محمد الصحاري (ت 456هـ) الطبيب واللغوي إلى تأليف كتابه المعجمي " كتاب الماء"، وهو ما يؤكد عليه في مقدمة كتابه: ((ولما كان الغالب على أبناء صنعتنا اللحن والغلط، وقد تفشت فيهم العُجْمة والشطط، فأنشأت كتابي هذا على حروف اللغة)) [154] . ويؤكد على هذا المعنى في موضع آخر من مقدمته: ((فلقد بلغنا عن أطباء عصرنا ومتطببيه، وصيادلته، وعطاريه، وأهل الجراحة والتشريح، والكحالين، ما بلغنا من خروجهم على لغة العرب، وتفضيلهم لكلام العجم يتمادحون بذلك فيما بينهم، ويغمضون فيه أمام مرضاهم، إظهاراً لقدرة لا تستحق الإظهار، وعجمة لا تستوجب الافتخار { ♦➲⑥♐❄❄⅄✡⚐⌧✞⑤ ✡⇖♊”✞⌧💣✠⑤ ♐✖➔♦•✡♋🖫⌧♦❄▦ ⬀✡○⚐✞⌧✍⑤ ♏➲⑥⌖⅄✡⌧ ⑤⌖○⌖☟❄⬋⌖➔ 🕛♦⬂✡⮙♐❄❄⑩♊⬀✞☺⑤ ❝➲♑&⑨✈♦⮟ 🕛♦⬂✡❄⑩⌖●⌖⬀ } [155] . فجهدت جَهدي أن أعيد الأعجمي من لفظ الأطباء إلى رسوم لسان العرب)) [156] .

ويتضح مما سبق أن نقد الصحاري كان موجهاً – في المقام الأول – صوب قضية تتعلق بالناحية اللغوية في علم الطب، وتغلغل المصطلح الأجنبي واختلاطه بالمفاهيم الطبية العربية لدرجة أضحت ظاهرة سلبية ينبغي التصدي لها. وهو ما قام به الصحاري إدراكاً منه لمسؤلياته كعالم يملك همّاً ثقافياً في مجتمعه .

ولكن خوضه غمار إصلاح المصطلح الطبي يلزمه التعرض للقضايا الطبية في كل جذر لغوي يذكره في كتابه فكان لزاماً عليه أن يمحص أيضاً المعلومات الطبية السائدة في عصره، ويقر الصحيح منها، ويترك الخاطيء ، الأمر الذي سوف يدخله في نقاشات علمية – وهو ما حدث فعلاً – تتعلق بآراء طبية موروثة عن أطباء الأمم السابقة، وخاصة اليونان، وأخرى قال بها أطباء المسلمين .

وهذا ما حدث فعلاً، إذ نلحظ الصحاري لا يكاد يمر على القضايا الطبية العالقة في ذلك الوقت دون أن يبدي رأيه فيها، إما تأييداً أو مخالفة، ولنا أن نتخيل كمية

([154]) الصحاري : كتاب الماء ، (30/1)
([155]) سورة النحل، الآية (103).
([156]) الصحاري : كتاب الماء ، (31/1)

المصطلحات التي وردت في كتاب " الماء "، وبالتالي تقدير كمية النصوص النقدية أو الاستدراكية التي جاء بها الصحاري .

وتحفظ الصحاري على الوضع الطبي لم ينحصر على الجانب اللغوي فحسب، وإنما امتد إلى الجانب العلمي والممارسة الطبية، أو بمعنى أدق المنهج العلمي المتبع في الدراسات الطبية، ويستوي عنده في ذلك أطباء اليونان والمسلمين: ((وقد حاول كثير من الأطباء مثل جالينوس وغيره أن يزيدوا أو ينقصوا فيه لا لضرورة أوجبت ذلك عليهم، ولا لداع قوي دعاهم إليه، ولكن التماساً للذكر، وليبقى عنهم أثرٌ فيه، كما بقي لأندروماخس .

وكان اللازم أن لا يغيروا شيئاً أخرجته التجربة نافعاً. فلعل ذلك المزاج بذلك الوزن هو ما اقتضته التجربة ودعت إليه الحاجة، وأنه إذا حُرك عن وزنه لم يستتبع تلك الخاصية .

ثم إن ادعى مدع منهم أنه عارف بنسب تلك الأوزان، أو أنه تحقق كيفية حصول الأفاعيل بهذه الأوزان فقد أدعى ما هو مردود عليه، كما قالوا أن مدعياً ادعى معرفة أوزان العناصر في الإنسان)) [157] .

فالصحاري هنا يحاول تديم مسوغ لتجاسر الأطباء، وحتى الأعلام منهم، على الفتيا في مسائل الطب دون إعمال للفكر في أكثر المسائل، وهو رغبة تلك الفئة – كما يرى الصحاري – في إثبات وجودها في مجتمعاتهم، حفاظاً على المكتسبات التي يحققونها من كونهم مسؤلون عن صحة أفرادها .

وكثيراً ما نقرأ تعليقات الصحاري على ما ينقله من آراء، سواء لعلماء اللغة أو الأطباء، دون النظر إلى أسماء أصحابها، على نحو: ((وقول الجوهري: ...وهم، لأن...)) [158]، ((وقد نهى غيرنا عن الجمع بين ماء البئر ماء النهر معاً، ولا أعرف له وجهاً)) [159] . وفي شأن كيفية الإبصار يقول: ((وأكثر الفلاسفة ينقضون هذا الرأي، ويقولون: إن إدراك النفس لهذه الأشياء إنما يكون بتوسط إدراك القوى المخصوصة بها، ثم ينتقل

([157]) المصدر السابق ، (197/1)
([158]) المصدر السابق، (128/1)
([159]) المصدر السابق ، (1/ 36-37)

ذلك الإدراك إلى النفس. والحق إن الأمر كذلك)) [160] . وفي شأن أنواع الحميات، يقول: ((واعلم أن لنا نظراً في حصر الأطباء الحميات في هذه الثلاثة ... وما ظنه جالينوس ... فهو ظن فاسد)) [161] . ويوجه نقده لمن قصر كلمة " المعلول" على الإنسان المريض، والحديث المعلول بقوله: ((وأما إطلاق الناس له على الذي أصابته العِلة، أو الحديث المعلوم، فهو وهم. ويقال لذلك " مُعَلّ ((من أعله الله ومعلل)) [162] .

وفي اعتراضه على ما اشتهر بين العوام، يذكر في هذا الصدد: ((ما اشتهر بين العوام أن العمر الطبيعي للإنسان مائة وعشرون سنة لا أصل له)) [163] . ولكن الصحاري يستدرك على ذلك، قد يجوز أن يعيش الإنسان ألوفاً من السنين، وتلك ميزة خص الله (سبحانه وتعالى) من شاء من البشر، كقوم يونس (عليه السلام)، وعمر نوح (عليه السلام)، ((لكنا إذا استقرينا أعمار الناس في هذا الزمان وجدنا أكثرها ما بين الستين إلى السبعين، وأن عمر الإنسان لا يتجاوز مائة سنة إلا في النادر جداً. وما يقال من أن بعض أهل السند والصين يعيشون كثيراً حتى يتجاوز كثير منهم مائتي سنة فلا صحة له)) [164] .

وفي موضع آخر يبدي الصحاري استغرابه الشديد مما ذكره البيروني من أن نبات الفَوْتَنْج إذا أكلته الدواب البرية،ثم رميت بالسهام، فإن السهام تتساقط عن بدنها، ولا تضرها بشيء، ووصف ذلك بأنه ((من الأعاجيب التي لم نقف عليها)) [165] .

ونجد الصحاري يعلن اعتراضه على شيخه ابن سينا عندما قال بأن نبات الفجل من النباتات الرطبة في طبيعتها: ((وأما أنه رطب فمما لا يصح، لأن الأرضية شديدة اليبوسة، والنارية يابسة، فلذلك يجب أن يكون يابساً)) [166] . ويبدي اعتراضه على فئة من الأطباء ظنت أن المراد بمقولة " الصحة تحفظ بالمثل " أي الصحة التامة: ((وعندنا

([160]) المصدر السابق ، (131/1)
([161]) المصدر السابق ، (1/ 365-366)
([162]) المصدر السابق ، (3/ 67)
([163]) المصدر السابق ، (3/ 69)
([164]) المصدر السابق ، (3/ 69)
([165]) المصدر السابق ، (3/ 357)
([166]) المصدر السابق ، (134/3)

أن هذا القول ليس بسديد ... فالمراد بقولهم " الصحة تحفظ بالمثل "، أن ذلك الصحيح هو الذي تقاربت فيه كيفيات العناصر. وهذا هو المعتدل الطبي)) [167] .

وترد على لسان الصحاري في عدة أماكن من كتابه عبارات نقدية عامة إزاء قضية مسلم بها عند الأطباء أو عامة الناس، ومنها قوله: ((وقرأت في كتب الأطباء المتقدمين ومقالاتهم ما لا أعرف له وجهاً)) [168] . وقوله أيضاً: ((وكثير من الناس يقولون أنه ... وليس الأمر كذلك)) [169] ، وكذلك: ((وقد رأيت من إهمال أهل عصرنا أمراً عجيباً)) [170] . وكثيراً ما يعلق الصحاري على ما يورده من آراء بلغة حاسمة من قبيل: ((فإن هذا عندي يستحيل)) [171]، وقوله: ((ولا أحق كل ذلك، ولا أعرف كيفيته)) [172] .

ولكن الصحاري، على الرغم من ذلك وكما مر معنا، كان عالماً محباً للحق والحقيقة، فلم يكن يجد حرجاً في أن يعترف بأن ما جاء به غيره ((هو المذهب الحق)) [173] . وتراه يتوقف عن الجزم برأي محدد أمام القضايا التي لم تثبت عنده على وجه معين، ويعترف بكل شجاعة: ((ولا أدري كيف صحته)) [174] .

سابعاً : الإيمان بسيرورة العلوم

وابن سينا يقدم معنىً عميقاً –يخبر به تلميذه الصحاري- يفرق به بين التراكم المعرفي للعلم وبين النمو الفكري الذي يتجه صعوداً مع التراكم المعرفي نحو النضج

([167]) المصدر السابق ، (2/ 385-386)
([168]) المصدر السابق ، (2/ 470)
([169]) المصدر السابق ، (2/ 442)
([170]) المصدر السابق ، (2/ 411)
([171]) المصدر السابق ، (2/470)
([172]) المصدر السابق ، (2/ 297)
([173]) المصدر السابق ، (1/ 317)
([174]) المصدر السابق ، (2/ 128)

العلمي، فنجده يتحدث عن نشأته العلمية ثم وصوله إلى مرحلة يرى بأنها جعلته يستثمر ما تم تحصيله ويقول: ((وكنت إذ ذاك (في مرحلة قراءته للعلوم) للعلم أحفظ، ولكنه اليوم معي أنضج، وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لي بعده شيء)) [175] . والصحاري عندما جاء بهذا النموذج في تطور العلم، أراد به أن يكشف عن معنىً أكثر عمقاً يذهب فيه إلى أن النمو العقلي جزء لا يتجزأ من تطور العلوم، لأن ((العقل ينمو بالتجربة والمران)) [176] بشكل يتوافق ويتوازى مع نمو المعرفة حتى الوصول إلى مرحلة النضج من جهة العالم، وتحقيق حدٍ جيد في تقدم العلم .

ثالثاً : المحافظة على نسق أصل المنجز العلمي الذي تحقق، ويكون التحديث والتجديد والابتكار على منواله، إذ أصل العلوم واحد في أي زمان ومكان [177] ، فهو ليس مرتبطاً بأمة أو حضارة دون أخرى .

وتحفل العديد من المصادر التراثية الطبية بنصوص كثيرة تتحدث عن تغير قد طرأ على طرق تشخيص وعلاج الأمراض بما يتناسب مع ظروف العصر الزمانية والمكانية، وهذا الأمر يعتبر أكثر وضوحاً في علم الطب؛ لأن الأمر يتعلق بصحة الإنسان في المقام الأول ، وبالتالي تختلف بيئات عيشه وطريقة حياته وكذلك الأمراض التي تصيبه، ثم إن علم الطب يعتبر أسرع العلوم في تطوره منذ نشأته ، وهو أكثر العلوم تعقيداً من حيث الجزئيات التي يتناولها.

أما بقية العلوم فإن رياح التغيير قد أصابتها، ولكن ذلك التغيير كان في الوسائل العلمية وأسلوب التفكير ، والمعطيات العلمية الراهنة على نحو ما نراه في علوم : الكيمياء، والفلك، والهندسة، والحيل . فعندما خاض أبومحمد الصحاري في موضوع الجدري وأساليب العلاج التي جاء بها الأطباء؛ ختم حديثه بجملة تمثل قاعدة تجسد مبدأ الإيمان بتطور العلوم عند علماء المسلمين بأبسط صورة ، عندما قال : ((وبالجملة ؛ فعلاجه (يقصد الجدري) يرجع إلى اجتهاد الطبيب بحسب ما يراه في وقته)) [178] .

---

(175) الصحاري : كتاب الماء ، (61/3) .

(176) المصدر السابق ، (61/3) .

(177) يقول الصحاري في هذا الصدد : ((واعلم أن في المركبات أدوية هي عمدة وأصل، إذا حذفت بطلت القاعدة)). كتاب الماء، (196/1) .

(178) كتاب الماء، (249/1) .

سابعاً : ضوابط المعرفة

لم يجد علماء المسلمين صعوبة كبيرة في بناء المنهج العلمي وتطويره وتطبيقه والالتزام به في بحوثهم وأعمالهم العلمية لأن مبادئ وقواعد وأخلاقيات هذا المنهج في مجموعها جزء من فكرهم الإسلامي وثقافتهم الإسلامية، وتعتبر استجابة وتطبيقاً لأوامر دينهم الإسلامي وتعاليمه السامية التي تدعو العالِم في عمله العلمي إلى الالتزام بمبادئ الصدق والأمانة العلمية، وطلب الحق لذاته، والإخلاص، والصبر، والوضوح، والدقة، والموضوعية . والتي تدعو في الوقت نفسه إلى تجنب ما يقابل هذه المبادئ من المعاني السلبية .

ولقد نادى علماء المسلمين [179] بكثير من مبادئ وأخلاقيات البحث العلمي وطبقوها علمياً في أبحاثهم العلمية، وهي بالتالي تعبر عن أخلاقيات النقد لديهم . ومبدأ الخلقة في النقد مرجعه فهمهم الواضح لتطور العلوم، الأمر الذي جعلهم منصفين ومتحفظين في نقدهم . وبالتالي يصبح النقد لديهم بناءً لهرم المعرفة، وليس انتقاصا أو نقداً لمجرد النقد، وهو ما استوعبه البيروني عندما عزم على تأليف كتابه (الصيدنة في الطب) ، وهو القائل : « فقد كنت طالعت لأبي بكر الرازي في الصيدنة والأبدال لم أفز منها بالكفاية، فأضفت بعض ما فيها إلى ما اجتمع عندي تذكرة لنفسي ... ثم لمن جانسني بحب الفضيلة واقتفائها بشرط المكافئات في تصحيح ما أمكن تصحيحه من زلة أو سهو أو غفلة » [180] . ويرسخ البيروني الأسس الخلقية في النقد في كتاب آخر له مما يدل على سيطرة هذا الأمر على منهجه العلمي بشكل عام حيث يقول : « إنما فعلت ما هو واجب على كل إنسان أن يعمله في صناعته من تقبل اجتهاد من تقدمه بالمئة، وتصحيح خلل إن عثر عليه بلا حشمة، وتخليد ما يلوح له فيها تذكرة لمن تأخر عنه بالزمان وأتى بعده » [181] .

ونلحظ في المنهج النقدي عند المسلمين صورة جميلة للنزاهة ونكران الذات والأنا لديهم في أحيان كثيرة حتى أصبح هذا الجانب الأخلاقي خصيصة من خصائص النقد .

([179]) الرهاوي: أدب الطبيب ، (ص40-41، 55) . الصحاري : كتاب الماء ، (40/2) .
([180]) الصيدنة في الطب، (ص16) .
([181]) القانون المسعودي ، (1/4/1-5) .

أولاً : الضابط الأخلاقي

1- النزاهة والموضوعية

ومما يدل على موضوعية وحيادية علماء المسلمين ونزاهتهم في اتجاههم النقدي اعترافهم بالآخر، وحرصهم الشديد على عرض وجهة النظر المقابلة في دراساتهم النقدية، حتى يكون القارئ على بينة من فحوى الرأي المنقود، مع الإقرار بفضل صاحبه، فصرحوا بعمق العلم اليوناني، وجهود أرسطو في تأسيس علوم المنطق، والطبيعيات والإلهيات على منهج يقوم على الجمع بين الحس والعقل [182] . والحياد قد ألزمهم بذكر الآراء التي يكونوا على قناعة بعدم صحتها، ولذلك يتبعون سرد الرأي المقابل بعبارات تشير إلى تحفظهم إزاء هذا الرأي أو ذاك على نحو : « وهو من الأعاجيب التي لم نقف عليها » [183] .

غير أن من العلماء من رأي الأمر على خلاف ذلك، وصرّح بأن حسن الظن لا يكون على الدوام إذا ما كان العمل المقصود بهدف صاحبه من ورائه أمراً لا ينجم مع أخلاقيات العلم، فعلى الرغم من احترام الصحاري لعلماء اليونان؛ إلا أن ذلك لم يحول دون اتهام الكثير من الأطباء مثل جالينوس وغيره، بأنهم حاولوا أن يزيدوا وينقصوا في أوزان بعض الأدوية لا لضرورة أوجبت ذلك ولكن « التماسا للذكر، وليبقى عنهم أثر فيه، كما بقي لأندروماخس » [184] .

كما كان التأدب في رفض الآراء العلمية المخالفة إحدى مميزات الضابط الخلقي السائد في منهج علماء المسلمين النقدي « والحق أنه ليس كذلك...وقد غلط فيه جمع كثير من فضلاء الأطباء » [185] ، « وعندنا أن هذا القول ليس بسديد » [186] .

---

(182) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، (ص552) .
(183) الصحاري: كتاب الماء، (357/3) .
(184) الصحاري، كتاب الماء، (197/1) .
(185) الصحاري: كتاب الماء، (411/2) . وانظر: الكشكري: الكناش في الطب، (ص214) .
(186) الصحاري: كتاب الماء، (385/2) .

وفرض تمسك علماء المسلمين بمبدأ نصرة الحق عليهم قدرا من المسؤولية التاريخية في إثبات كل ما يتعلق بكل قضية علمية يتناولونها بالدرس والنقد، الأمر الذي جعلهم يحرصون كل الحرص على استعراض الآراء المختلفة حيال قضية معينة كما هي، دون تغيير في محتواها أو اتجاهاتها الفكرية، وكذلك لا « ينبغي أن يرذل واحد من هذه الآراء » [187] . حتى ولو كانت كل تلك الآراء أو بعضها تخالف الرأي الذي ارتضاه صاحب الكتاب [188] . فالصحاري في حديثه عن مفهوم الإبصار وكيفيته، نجده يحشد كل الآراء التي تناولت هذا الموضوع، حيث يذكر آراء الرياضيين، والأطباء، وعلماء الطبيعة كما هي، ولم يمنعه ذلك من أن يعلن رأيه الخاص في هذا الموضوع : « ومذهبنا في الإبصار أنه...كذا » [189] ، وحتى عندما أيد الرأي القائل : بأن النفس تدرك المحسوسات كلها بتوسط إدراك القوى المخصوصة بها، ثم ينتقل ذلك الإدراك إلى النفس، وهو رأي الفلاسفة، فإن ذلك لم يمنعه من ذكر الرأي المضاد، والقائل بأن النفس تدرك المحسوسات كلها بلا واسطة، وأنه ليس للبصر قوة باصرة، ولا للشم قوة تدرك الرائحة ونحو ذلك [190] .

فالصحاري يدرك -بلا شك- أن وضوح الصورة في ذهن القارئ لا يتم إلا باستيعاب كل الآراء التي جاءت في هذا الموضوع، وحتى يستطيع أن يقنع القارئ -إذا ما أراد ذلك- بمواطن الخلل في الرأي الذي لا يرتضيه، وهو في الوقت نفسه يحفظ تاريخ هذه القضية للأجيال القادمة، التي قد لا تظفر بالمصادر التي اطلع عليها الصحاري وغيره من أبناء عصره، وبالتالي هم عيال على سلفهم في هذه القضية عند نشأتها .

ومن أجمل صور النزاهة عند علماء المسلمين في منهجهم النقدي، أنهم كانوا على درجة عالية من الوضوح في طرح آرائهم، والحكم على الآراء المقابلة أيضا، بغض النظر عن صحتها، فلم يجدوا حرجا في الاعتراف بصواب الرأي الآخر مهما

---

(187) الفارابي: التمرة المرضية، (ص19) .

(188) البيروني: القانون المسعودي، (ص5) .

(189) الصحاري: كتاب الماء، (131/1-132) .

(190) المصدر السابق، (131/1) . وانظر نماذج أخرى لذلك، (158/1) . وأيضا : ابن النفيس: المهذب في الكحل المجرب، (ص86، 95) . والغريب أن ابن النفيس ينقل كلام الصحاري بالنص دون الإشارة إليه في مناقشة للآراء التي تناولت موضع الإبصار .

كان صاحبه، « والحق ما قاله جالينوس » [191] . وأن آرائهم وأقوالهم ليست حقيقة مطلقة : « ونحن وإن كنا قد قلنا : إن سبب داء الثعلب وداء الحية سبب واحد فكثير ما يخالف » [192] ، « وقال أرسطو...وهذا هو المذهب الحق » [193] .

ونلمح في الدراسات النقدية للعلماء التجريبيين ملمحاً من ملامح الموضوعية في البحث العلمي، ألا وهو عدم الجزم بصحة ما يقولونه من آراء، لأنهم –وكما سبق أن ذكرنا- كانوا ينطلقون من رؤية الإسلام للعلم، بأن الحقيقة لا يملكها أحد، وأن القول بمطلقيتها في أي زمن يعد ضربا من الانحدار الفكري، وليس أجمل ما عبروا به عن هذه الصورة من صور النزاهة والحياء العلميين من ترديدهم في أعقاب معظم آرائهم الشخصية بجملة : « ولا أدري كيف هو » ، « ولا أدري كيف صحته » ، « ولا أحق كل ذلك، ولا أعرف كيفيته » [194] .

ومن أكد المعاني التي قال بها علماء المسلمين، حمَدْهِم لصنيع الأوائل، وذكر فضلهم في مقدمات كتبهم، رغبة منهم في تقرير مبدأ أخلاقي نزيه مفاده : أن نقد آراء هؤلاء العلماء لا يعني المساس بمكانتهم العلمية، أو دورهم المهم في مسيرة العلوم التي برزوا فيها . فعلى الرغم من توقف أبو محمد الصحاري عن قبول العديد من آراء ابن سينا في الطب، ومخالفته للخليل بن أحمد الفراهيدي في العديد من المواضع من ناحية اللغة، وتأييده لآراء من خالفه من علماء اللغة، إلا أن ذلك لم يحول دون أن يقرر في مقدمة كتابه بأنه إلى هذين الرجلين (ابن سينا والفراهيدي) يعود « فضل ما في هذا الكتاب من طب نافع، ومعنى شافع » [195] .

2- الأمانة العلمية :

إن من أهم السمات الإساسية والحتمية التي يجب أن تتوفر في أي علم من العلوم حتى يكون من جملة العلوم المحمودة، والمعارف المطلوبة في الإسلام، وهي : الأمانة العلمية في توثيق النص العلمي، والتثبت من مصدره . وكان علماء المسلمين يشددون

(191) ابن النفيس: شرح فصول أبقراط، (ص127) . الكشكري: الكناش في الطب، (ص332) .
(192) الكشكري: الكناش في الطب، (ص11) . الصحاري: كتاب الماء، (463/3) .
(193) الصحاري: كتاب الماء، (317/1) .
(194) الصحاري: كتاب الماء، (128/2، 297، 326) .
(195) الصحاري: كتاب الماء، (31/1) .

على ضرورة الأمانة والدقة في النقل . وبغض النظر، سواء أكان المنقول حقا أو باطلا، فإن الصدق في إيراده له أهمية في البحث العلمي عند العلماء، لأن في ذلك تيسيرا للطالب للاطلاع على الآراء المختلفة حيال علم من العلوم، أو قضية من القضايا [196] .

ثم إن علماء المسلمين التجريبيين يرون في هذا الضابط الخلقي تتجسد صفة« الإنصاف » ، وحيث أن الحقيقة هي طلبه العالم وغايته من بحثه، لذلك عليه تحقيق هذه الصفة إلى أقصى حد ممكن، فعليه إنصاف خصومه من العلماء، وإيراد حججهم كلها، غير تارك لبعضها عمدا، ولا مضيفا إليها شيئا من عنده، ثم يرد على كل واحد بما يراه مناسبا، حتى يعطيهم حقهم غير منقوص، شارحا لوجهة نظره بموضوعية تامة [197]

بل تصل الدقة بهم إلى تقنين ألفاظهم لتحديد مستوى المعلومة المستفادة من تلك المصادر، كإردافهم للمعلومة بعبارات، منها : « ...ونقل ذلك البيروني عن جالينوس وغيره » [198] .

الثاني : الضابط العلمي (الانسجام مع المنهج العلمي)

تدخل « المسلمات العلمية » في منهج علماء المسلمين العلمي عن طريق صياغة القوانين الكلية من خلال الجزئيات المستقرأة ، وقد استلهمه المسلمون من نصوص القرآن الكريم، قال تعالى {✦❶♦❄❸ ⑤ ✡➪✈➔♦ ⑤ ✡➪❷✡ ⑤ ✡➪❷✡ ❄♦❶✦} [199] حيث بين المولى –Y- أن السنة الجارية في حالة معينة أو جزئية معينة هي سنة عامة لسواها من نوعها .

أما الجزء الآخر من المعرفة الذي يقابل المسلمات العلمية، أو بمعنى أصح « السنن الربانية في الكون » هو الذي يتحرك في دائرته عقل الإنسان. وعلمنا في موضع سابق أن العقل البشري مأطور بإطار الزمان والمكان الحسيين، والنشاط العقلي لها يتجاوز بمفردة دائرة الكون المحسوس؛ لأنها خارج نطاقه وقدراته، ولهذا يجيء «

---

(196) ياقوت الحموي: معجم البلدان، (1/11-12) .
(197) بركات مراد: جابر بن حيان، مجلة عالم الفكر، مج17، ع4، 1987م، (ص149) .
(198) الصحاري: كتاب الماء، (1/118) .
(199) سورة الفتح ، آية (23) .

الوحي الإلهي » ليكمل للإنسان دائرة المعرفة فيخبره بما هو خارج قدراته من عالم الغيب المختلفة .

ولذلك نلاحظ أن تطبيق معيار الانسجام عند علماء المسلمين ارتبط بمدى توافقه مع المنهج العلمي، وأداتي العلم: الحس، والعقل. فيقول أحدهم: « والحس أقوى دليلاً من السمع .. وجالينوس وإن كان في الدرجة العليا من التحري والتحفظ فيما يباشره ويحكيه إلا أن الحس أصدق منه » [200] .

ولاشك أن الارتكاز على هذا المعيار في سير الآراء العلمية ونقدها يتطلب ا لتعليل أو السبب في عم قبول هذا الرأي أو ذاك، الصحاري – مثلا- عندما ناقش مصطلح « الروح » استعرض مدلوله عند علماء التفسير، الذين قالوا بأنها النفس الناطقة، وعند المتكلمين هي: جسم لطيف سار في البدن كسريان ماء الورد في الورد، وعند جمهور الأطباء؛ الروح غير النفس. فكان لهذه التقدمة من قبل الصحاري أهميتها في اعتراضه لرأي جالينوس القائل بأن الروح متولد من الهواء المستنشق، ووصفه بأنه باطل، إذ يرى هو أن الروح متولد عن بخار الأخلاط ولطيفها، وهي تقوي عند تناول الأغذية، وتضعف عند قلتها. وتعليله ببطلان رأي جالينوس بأن « لو كان الروح متولداً من ذلك لبقي عند استنشاقه، سواء ولد عليه غذاء أم لم يرد، والوجود بخلاف هذا » [201] . ولم يقبل الجوهري صاحب « الصحاح في اللغة » بأن مصدر الكافور دويبة تشبه السِّنَّود، ووصف قوله هذا بأنه « وهم؛ لأن الكافور ... صنع شجر في الهند ، وأما الدويبة التي ذكرها فاسمها الزِّباد، والطيب الذي يُحلب منها يسمى زباداً باسمها. وقال البيروني : الكافور صمغ شجر يكون في داخل الشجر ... » [202] .

إلا أن هذا التشدد في الاستمساك بضابط الانسجام حذو القذة بالقذة في العلاقة بين النص العلمي أو المعرفي وبين حقيقته المراد الوصول إليها؛ لا يعني أن كل ما هو موجود في مؤلفات علماء المسلمين قد خضع لمتطلبات هذا المعيار، وإنما هناك نصوصا تفصح عن أن الالتزام بهذا المعيار لم يكن مطبقا على الدوام، لأننا نعثر على

---

(200) عبداللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار، (ص130) .

(201) الصحاري: كتاب الماء (183/2،. وانظر وهذا الأمر أيضاً: الصفحات: (131/1-132، 365، 366)، (275/2-277)، (65/3 ، 69-70 ، 72، 392-393) .

(202) المصدر السابق (128/2) .

نماذج لذلك في مؤلفات نص أصحابها على إخضاع كل ما يوردونه فيها يما يتوافق مع النطق العلمي والعقلي، من قبيل البعض منهم لأمور لا تتوافق مع العقل بداهة فضلا عن المنهج العلمي،أو نقل الآراء مع التعليق عليها دون مناقشتها . كما فعل الصحاري مع ما ورد على لسان البيروني من أن نبات « الفَوْتَنْتج » الذي ينبت حول المستنقعات، له تأثير عجيب على بدن الماعز البرية إذا ما أكلته، ثم رميت بالسهام « فإن السهام تتساقط عن بدنها ولا تضرها بشيء، وهو من الأعاجيب التي لم نقف عليها » [203] . وهذا التحفظ من الصحاري يُعد نموذجا متكررا في كتب علماء المسلمين المثقفين، وهو في الوقت نفسه ذو دلالة على نزاهة العلماء إزاء الآراء المطروقة .

إلا أن الإجماع أيضا لم يكن يفي التسليم بكل ما أجمع عليه العلماء، وإنما هناك حدودا لقبوله تتوقف على قوة الحجة المناقضة له، وهو أمر صحي ولاشك، خاصة إذا ما صح الرأي الذي قال به العالم، فإنه يعطي مؤثرا على الاستقلال الفكري الذي كان يتمتع به علماء ذلك الوقت . ولهذا لم يجد العلماء غضاضة في الإفصاح عن رفضهم للكثير للآراء المجمع عليها، وكثيرا ما نقرأ تحفظات للصحاري كقوله : « وقرأت في كتب الأطباء المتقدمين ومقالاتهم ما لا أعرف له وجها ...وهذا توهم كما سنبينه » [204] .

وإذا كانت التجربة تمثل عنصرا جوهريا، وركيزة أساسية يقوم عليها المنهج العلمي عند علماء المسلمين في العلوم التجريبية على نحو ما سبق بيانه، فإن كل ما ذكر عن أهمية التجربة كمعيار خطير أكسب المنهج العلمي في الإسلام سمة التفرد والأصالة عن المناهج المتبعة عند الأمم السابقة .

ومادام أن تطبيق معيار الانسجام كضابط علمي من ضوابط النقد يقوم في المقام الأول على مدى نجاح النص العلمي –المعروف للنقد- في تجاوز خطوات المنهج العلمي بنجاح، والتجربة هي أهم خطوات هذا المنهج، وبالتالي ندرك أهمية التجربة كأحد العناصر المكونة لضابط معيار الانسجام .

([203]) الصحاري: كتاب الماء، (357/3) .

(204) م.س ، (470/2) .

ولذلك، نقرأ نصوصا صريحة وحاسمة لعلماء المسلمين في إخضاعهم لكل ما ورثوه لعنصر التجربة، في قبول تلك الآراء أو رفضها، فلم يتورع بعضهم أن يعلن صراحة بعد تجربته لبعض النتائج التي وصلت إليه ،« ولا تلتفت إلى قول من يقول من الأطباء بأن كثرة التطفية تبطي البُحْران، فإني قد امتحنت الطريقين، فوجدت هذا الطريق أسلم وآمن وأقل خطراً، بإذن الله تعالى . ومن يموت من أصحاب هذه الحمى مع هذا التدبير أقل كثيرا ممن يموت مع التدبير الأول » [205] .

وهذا يعني أن الحواس، وإن كانت هي السبب الذي يؤدي إلى كل المعارف الحسية التي تقع تحت رسائل الحس، بل هي أساس كل معرفة، إذ منها يستمد العقل ويستفيد في تكوين معارف يقينية لا سبيل إلى الشك فيها، نقول وإن كانت كذلك إلا أن سلامتها الوظيفية، وانضباطها بما حدده الإسلام لمجالات العقل يمكن أن يكون ذلك جوهر معيار الانسجام بين الآراء العلمية المطروقة على بساط البحث وبين المنطق العلمي والعقلي . ولا يكون الشك في وظيفة الحواس، وإنكار دورها في المعرفة، وإنما يكون الشك مقبولا إذا ما اعترض عارض لأدوات الحس حال بينها بين المحسوسات، فيكون الإدراك –بطبيعة الحال- ناقصا أو مفقودا بالكلية فلا تستطيع الحاسة إذن أن تدرك الأشياء [206] . وهذا الأمر إنما المقصود به العلوم التجريبية دون غيرها من العلوم، وإلا فإن هذا المعيار لا يمكن تطبيقه في بقية العلوم الأخرى، نظرا لاختلاف تلك العلوم التجريبية ومن حيث العمل التقني في أكثر جوانبها، ومن حيث مصادر معرفتها .

الخاتمة

من خلال الصفحات السابقة ترفنا على عالم من طراز خاص , وإن أهملت المصادر سيرته ,عالم لا يقل أهمية عن علماء المسلمين المبرزين في العلوم التجريبية إذا لم يكن معهم على صف واحد .

فالصحاري ضمَّن كتابه كثيراً من النظريات العلمية التي من شأنها أن تغير كثير من المفاهيم السائدة في ميدان الطب , سواء ما كان منها متعلقاً بالمادة الطبية نفسها . ومنها

---

(205) م.س ، (277/1)،(186/2) ،(70/3، 134) .

(206) الماتريدي: كتاب التوحيد، (ص7، 25-26، 154) ووجه الماتريدي نقدا عنيفا على السوفسطائيين، الذين بلغ بهم الشك إلى إنكار كل معرفة، وعلم، وأنكروا المعارف الحسية . فأخذوا في مجادلتهم، ومتتبعا للحجج التي استندوا عليها بالتقيد والنقاش .

: أن المشهور في تاريخ العلوم أن ابن النفيس (ت 686هـ) قد سبق العلماء الأوروبيين إلى اكتشاف النظرية العلمية الحديثة في الإبصار القائلة بأن الأشياء هي التي تعكس الضوء فتدخل صورها إلى العين , ويقع الإبصار. والصحيح أن هذا الإنجاز قد حققه الصحاري قبل ابن النفيس عندما ذكر هذه النظرية بالنص عند حديثه عن الإبصار كما مر معنا.

كما تطرق الصحاري إلى الأمراض النفسية , والاضطرابات العقلية وأوضح طرق التخلص منها أو تخفيف شدّتها وعوارضها.

كما أبدع الصحاري في علم الصيدلة من خلال وصفه للأدوية المعتمدة على النباتات والأعشاب الطبية ضمن قانونه الخاص في علم الأدوية , وعزوفه عن استخدام الأدوية المركبة , مشدداً على أن لا تستخدم إلا بمعرفة الطبيب ((ذي الدستور)) أي المتمكن في صفة الطب .

وأخيراً فإن كتاب الماء للصحاري يعد ذخيرة علمية يكفي الصحاري ـ لولم يخرج سواء ـ شرفاً بأن صنف مثل هذا السفر العلمي العظيم.

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

ـ المقدمة .....
ـ ترجمة الصحاري 1
ـ معالم المنهج العلمي للصحاري 3
ـ المعرفة عند الصحاري 19
أولاً: مرفقه من العقل كأداة للمعرفة 19

ثانياً:التآزر بين العلوم 22
ثالثاً : تصنيف العلوم 29
رابعاً:تحرير المصطلح العلمي 29
خامساً:التجديد المعرفي 33
سادساً:الإيمان بتطور العلوم 37
سابعاً :ضوابط المعرفة 38
ـ الخاتمة 45
ـ الفهرس 46